ريحة بارود

قصص قصيرة

مطاع القاق

مركز ليفانت للدراسات الثقافيّة والنشر
الإسكندريّة، مصر
أدونيس للثقافة والنشر، ريف دمشق، سوريا

اسم المؤلّف: **مطاع القاق**
عنوان الكتاب: **ريحة بارود، قصص قصيرة**
١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

© جميع الحقوق محفوظة

موقع إلكترونيّ: http://www.levantcenter.net
Levant.egsy@gmail.com

موبايل ٠١١١٤٣٩١٦٠٠ / ٠١٠١٨٠٨١٩٠
هاتف / ٤٨٣٠٩٠٣ ٠٣ مصر

عنوان :ط٣ ، بناء ٤٤ ، ش سوتر، أمام كلية حقوق
الإسكندرية، مصر

رقم الإيداع: ٠٩٧٣
الترقيم الدوليّ: ٢-١-٠١-٦٦٥١-٩٧٧-٩٧٨ /
تاريخ: ٢٤ /٥/٢٠١٨م

سرقة الشمس

سرقة الشمس

أخيرًا، استطاع وليد أن يسرق سيكارتين من علبة سكائر أبيه من دون أن يراه أحد. فما أن انتهى أهله من تناول طعامهم، وخرجوا ليغسلوا أيديهم حتى مدَّ يده إلى جيب الجاكيت المعلق، تناول سيكارتين بسرعة البرق ورماهما في عبه. بحث بعدها عن علبة الكبريت في المطبخ، لكنه لم يجدها، فاضطر للعودة والقيام بمغامرة أخرى سريعة والتخطيط لسرقة علبة الكبريت من جانب المدفأة في أوضة المعيشة حيث الجميع يشربون الشاي بعد الغداء.

ولكن.. لا مجال للتفكير في خطة جديدة فالوقت ضيق، سيحاول أن يتعامل مع الوضع، ربما يضطر إلى استخدام جزء من مخزون الفتيش والكبسون والصوايخ المخبأ للعيد، أو... سوف يدخل ويتجه إلى المدفأة مباشرة مدعيا أنه بردان... لكن لا، لن يتركوه يخرج... ماذا سيفعل إذن؟ آه لو كان يملك طاقية إخفاء!

الوقت يمضي ولا مجال للتفكير، اقترب من الباب وفتحه بهدوء شديد، انسل كأفعى حتى لا يشعر به أحد، تفاجأ، لم يكن هناك أحد! اين هم؟! همهم.. هذا يفسر الأصوات القادمة من الصالون، لقد غافله الجميع وانتقلوا إلى هناك.

حصل على علبة الكبريت بسهولة كبيرة ومن غير خطة حتى. أخذها وأسرع إلى السطح انحنى عند مروره أمام شباك الصالون حتى لا يراه أبوه فيناديه.

كان عماد ينتظره بفارغ الصبر في مكان قصيٍّ آمن، فقد صنع من السحاحير القديمة حاجزا يحجب الرؤية إذا ما فكر أحد أن يباغتهم،

وكان يشعر بالملل الشديد لطول الانتظار، وما أن أطل وليد راكضا حتى فتح عينية وهمس بحماس:

- شو؟

رفع وليد كنزته بكلتا يديه حتى تجاوزت رأسه وظهر كل بطنه وصدره، فسقطت السيكارتان تحت مفاجأة ودهشة عماد الكبيرة، وسادت فرحة شديدة.

إلا أن الفرحة الشديدة لم تستطع أن تؤجل مباشرتهما السريعة بالتدخين. أشعل كل واحد سيكارته وصارا يقلدان الكبار ويُظهِر أحدُهما للآخر مهارته في وضع السيكارة بين أصابعه، ثم من يستطيع أن يُخرِج الدخان من أنفه، أخذ وليد يسعل بشدة، صار موضع سخرية عماد الذي نفَّذ الأمر بسهولة ومن دون أن يسعل حتى، تمادى الأخير في مباهاته بنفسه وادعى بأنه يستطيع أن يخرج الدخان من أذنيه؛ حاول، ثم حاول، لكنه فشل.

غير أنه بارع في تغطية فشله، جحظ عينيه بوجه وليد، ثم قال:
- شفت؟
- شو؟
- ما شفت الدخان شلون طلع من دينتي؟ ... انت أعمى؟
- أعمى ... طيب ... متل ما بدك؟

نظر عماد فيما حوله ليغير الموضوع، فرأى الشمس التي كانت تميل عند آخر البيوت وتتهيأ للسقوط، تحول إلى أخيه الذي ما زال يعب من السيكارة، فبدأ الحديث بشيء من الاستهتار، وضع يده في جيبه وصار يلوح بسيكارته، وراح يتكلم بعد أن سرَّب ضحكة استهزاء:

- بتعرف وين بتنزل الشمس؟

جاوب وليد وهو ما زال مشغولا بالتدخين ومن دون أن يفكر:

- أنا بكره الليل!

جحظ عماد عينيه، وتحولت نبرته إلى الأسلوب المشوق لتثير في وليد رغبة في الاستماع:

- ولك بتنزل بجنبنة بيت الخطيب
- بجنينة بيت الخطيب؟!
- إيه... بجنينة بيت الخطيب
- طيب شو عرفك؟ ... انت شفتها شي؟
- لكان ... هي متل الفطبول بس أكبر منو بتطلع هَـ الأد!

وفتح يديه بأقصى ما يستطيع، وأكمل:

- وكلها كلها دهب
- دهب؟

التفت وليد ونظر إلى الشمس متأملا:

- انت شو عرفك طيب؟
- لكان منين لن كل هَـ المصاري ... ما شفت شو في عندن سيارات؟ ... بعدين أنا شفتها بعيني هي ... مو مصدقني؟

صمت وليد قليلاً، التفت إلى الشمس ثانية، ثم قال محتارا:

- مبلا مصدقك

ثم وقف وقد استوت في رأسه الفكرة:

- طيب شو رأيك بس يجي بكرة نروح نسرقها؟
- بكرة؟!
- ايه بكرة
- ...انت أجدب!
- أجدب؟ ... طيب ليش؟
- يا أجدب بس يجي بكرة بتجي شمس تانية ... وبتروح علينا هي

وقد اتفقا على سرقتها، وعلى تنفيذ العملية مباشرة، لكي يصبحا من الأغنياء وعندهم سيارات. فانتهيا سريعًا من التدخين، ونزلا إلى المطبخ، حيث صعد عماد إلى السقيفة وتناول أكبر سلة يمكن أن تتسع لشمس، ثم انطلقا في الحواري إلى جنينة بيت الخطيب وهما يفكران بالذهب والأموال والسيارات.

بيت الخطيب بعيدٌ جدًّا، وعليهما أن يمشيا بأسرع ما يمكنها لأن الشمس تهبط بسرعة أيضا، ولم يكادا يتجاوزان الحارة الثانية حتى توقفا لأن أولادًا يلعبون بالفوتبول اعترضوا طريقهم، كانوا بحاجة للاعبين، اقترب زعيمهم من عماد، ونظر إليه باستخفاف وتحدٍّ.
- تتحدوا؟!
نظر عماد إلى وليد مشاورًا، ثم اتخذ القرار من دون أن ينتظر جوابا:
- إيه.. منتحدا

لم يستطيعا رفض التحدي ولا مقاومة إغراء اللعب، وضعا السلة بالقرب من الحائط، ونزلا إلى المباراة وراحا يلعبان.

انتظرتهما الشمس طويلا حتى تخلص هذه المباراة الحامية، لكن ظهر أن حرارة اللعبة العالية إغلا من الشمس ومن الذهب ومن السيارات، فاضطرت للنُّزُول في بيت الخطيب حزينة و بسرعة جاء الليل.

السبعا وزمتا

السبعا وزمتا

صار توفيق مسخرة سوق الغنم هذا الصباح، فلم يكن اهتمامه مثل اهتمام الزبون العادي، لم يهتم بعمر الخاروف مثلا صغيرًا كان أم كبيرا، سمينًا أو ضعيفًا، بل انصرف بقلق إلى قياس ليَّات الخراف بشبر يده.

في بداية الأمر، تسابق السماسرة إلى خدمة هذا الزبون الغريب، فما لبثوا أن اكتشفوا أنه مسطول، فلم يفهموا عليه ماذا يريد، سأله أحدهم عن طلبه بالضبط، فقال:

- بدي خاروف طول ليتو سبع شبار!

فانفجرت الضحكات مبددة كل السماسرة والتجار من حوله.

رغم كل هذه البهدلة والمسخرة وما تلقاه من خرينة السماسرة، فلم ييأس، حتى أنه أمضى كل النهار في البحث من دون أن يجد طلبه! بل إن أطول ليَّة وجدها لخاروف لا تتجاوز الشبرين والنصف.

لكن، أي طلب يطلب؟ سبعة أشبار! هذا يعني على أقل تقدير مترا ونصف المتر، أطول خاروف في كل سوريا لا يتجاوز طوله كله مترا وربعا.

رجع إلى الحارة مكسورًا، نظر إلى السماء ودعا ربه في نفسه:

- يا رب!... شو ساوي يا رب؟... بيجوز ما رح إئدر أوفي الندر اللي ندرتو للنبي هابيل... دستور من خاطرو... يا رب ألف ألف شكر وحمد... عطيتني هـ الصبي على سبع بنات... ألف حمد وشكر لقدرك العالي... بس امهلني... امهلني لدبر راسي.

وكما حسب وجد الشيخ في باحة المجلس جالسا قدام باب القاعة يطرق الأرض بعكازته بإيقاعات متواترة. المجلس هو المكان الذي يرهب منه توفيق ويخشى أن يأتي إليه، كذلك الشيخ صاحب الطبع القاسي الذي يستخدم عكازته في تأديب المذنبين، لطالما نالت من جوانبه تلك العكَّازة. دعا إلى ربه أن يكون رائق المزاج، اقترب منه بعد أن سلم عليه وجلس قدامه:

- شو مشكلتك؟

قال الشيخ ذلك فجأة وبصوت حاد من دون أن يرد على السلام أو يلتفت صوبه، فتراجع توفيق إلى الخلف وقد ظن أن العكَّازة ستضرب بعنف أحد أطرافه، فراح يشرح مشكلته مرتبكا وهو يراقب ارتطام العكَّازة على الأرض، حتى سكت:

- وليش كتر الغلبة؟

تراجع توفيق واضعا يديه أمام وجهه.

- حدا بيعمل عملتك؟! يخرب ديارك شو حمار!!

اعتدل توفيق ولم يتحسب من ضربة متوقعة وغرق في ملابسه، لقد غاب كلام الشيخ في وجه مثل الليمونة، صار متيقنا أن ولده جبر سوف يصيبه مكروه ما، لا سمح الله، فأخذ يرجو الشيخ أن يجد له حلا يضمن سلامة ولده.

فدعا له الشيخ وطلب من الله أن يغفر لهذا الغشيم والحمار ويسامحه لأنه لا يفهم سيئًا من شيء، وطلب منه أن يستعيض عن نذره الأول ويأتي بخاروف كبير ويوزعه كله للفقراء، وسوف يقوم بزيارة توفيق، والقراءة فوق رأس جبر والدعاء له.

ورغم أنه فعل كل ما أراد الشيخ بحذافيره، ورغم دعاء الشيخ لجبر بالسلامة وطول العمر بعد أن رأى بعينه كيف وزع الخاروف كله للفقراء، لم يرتح!

بل إنه نام على تخته وكأنه نائم فوق منقل جمر، فكلما تحرك ولده أو بكى نط بأربعته، مثل المجنون ليرى ما حل به.

قام إلى باب الدار، دخن خمس دفعة واحدة سيكارات، يشعِّل سيكارة من طيز الأخرى، فتجمعت فوق رأسه غيمة من الدخان، لاح من خلالها سكير دخل الحارة، عرفه إنه أبو دياب السأباني، قام ليدخل ثم تراجع، أحب أن ينظر إلى رجل بلا هموم، كان أبو دياب يغني، ويمشي مثل الزيك زاك، فيضحك من دون انقطاع ثم يتابع، جلس توفيق وهو يبتسم، وما كاد أبو دياب يصل حتى طرق بعشرين حائطا جلس بالقرب منه وعانقه من رقبته وقبله. صار يحكي عن نكتة قديمة وبايخة حكاها أحد رفاقه في الخمارة، وكر في ضحكة طويلة طويلة، ما قطعها إلا ضحكة توفيق المجاملة والقصيرة:

- شو بنا أبو جبر؟... لا يكون بدك تفنس لنا السكرة؟.... ولك شو باك مهموم؟!!...

فما وجد نفسه إلا وهو يحكي عن قلبه المحرق، حكى كل شيء حتى بكى. تناول أبو دياب بطحة العرأ من جيبه الداخلي فتحها ومدها صوبه:

- طول بالك أبو جبر؟!... استغفر ربك وخد لك شفطة... ولك خود هاد العرأ كاسرو جوزيف خود.

أخذ بطحة العرأ، نظر إليها ثم شرب، مع أنه تاب عن الكحول من عشر سنوات، أجبره أبو دياب على الضحك:

- ولك شو مفكر؟... ألله ما عندو شغلة غيرك؟... هي أنا، ولك عامل السبعا وزمتا؛ بسكر وبحشش وبنيك شراميط... مو مخلي شرموطة مو نايكها... ألله ما عم بيئرب عليي... بعدين قلة حرامية ونصابن وقتالين قتلة بهَـ البلد، ولك عمي قوم... قوم نام.. فأست لي سكرتي تلحس طيزي.

جاء إلى المحل متأخرا ثلاث ساعات، أول مرة يتأخر في كل حياته، مع ذلك، فقد كان راضيًا كل الرضا، وزع مكافآت سخية على الصنايعية من دون سبب، وعمل بنشاط في الأيام التالية، إلا أنه أهمل شيئا ما بسبب اهتمامه الزائد بولده جبر.

جاءت الأيام ومرض ولده، لم يأت إلى المحل إلا بعد الظهر، كان مهموما جدًّا، وكاد يفقد يده لما سها وهو يعمل على شلة الخشب، مع أن الطبيب قد طمأنه كثيرا في الليلة الماضية على صحة الولد السليمة والقوية فلم ينم جيدا البارحة، كان مرهقا للغاية من هذا النهار الطويل وما لبث أن وضع رأسه على المخدة حتى غفا وصار يشخر، فشاف في منامه رجلا ضخما بطول عشرة أمتار يلبس البياض الناصع ووجهه يضيء، قال له:

- توفيق!.. يا توفيق!.. بعدك ما وفيت النذر يا توفيق!... بعدك ما وفيت النذر يا توفيق... بعدك ما وفيت النذر......

نطَّ من التخت بأربعته وصرخ صرخة نبهت زوجته أمال من نومها، وأخذ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وهو يغير ملابسه بسرعة، ثم خرج من دون أن يجيب على امرأته بكلمة.

لم يكن ذاهبا إلى مكان محدد، لكنه لن يعود قبل أن يجد حلا لمشكلته بأي وسيلة كانت! لكن، في هذا الليل؟ وأين؟

كان قد وصل إلى رأس الحارة عندما لمعت الفكرة في رأسه؛ أبو دياب السأباني! لا يوجد غيره، إنه هو، هو من جعله كسلانا لا يبحث عن حل لمشكلته، هو وحده، وعليه أن يجد حلا. لكن، أين يجده في هذا الليل؟! لا بد أنه في خمارة جوزيف.

كان مجيء توفيق قد أخرج جوزيف من ورطة؛ لقد انتهى الوقت المسموح له أن يفتح خمارته، ولا يكاد الزبائن المداومون ينتهون أحاديثهم وضحكهم العالي، وزاد صراخهم وضحكهم وصول رفيقهم القديم، إلا أنهم انشغلوا في أحاديث جانبية لما اصطدموا بوجهه العابس، قرَّب من أذن أبو دياب وهمس:

- أبو دياب.. عاوزك.

- لعيونك أبو جبر، وصلت.. ومحلولة كمان... روء، و روِّءنا!

رد عليه وهو يجلسه ويربت على كتفه ولم يقبل أن يكلمه في الموضوع أو يخرج معه قبل أن يأخذ كأسا، فشرب، وشرب الجميع بصحته، وبسرعة امتزج معهم وراح يضحك، حتى كاد ينسى همه.

قال له بأنه سيحل له مشكلته، شرط أن يعطيه معلاء الخاروف وقنينة كبيرة من العرأ، ولما وافق توفيق من دون أخذ ورد، طلب منه أن يدخل وينام.

لم يطل نوم توفيق، فقد قام من الفجر، وراح مباشرة إلى سوق الغنم، فما لبث السماسرة أن ابتعدوا عنه، ولكنه اشترى خاروفا كبيرا في النهاية، وفي طريق العودة اشترى ثلاث قناني عرق كبيرة، ربط الخاروف في المدخل وطلب من أمال أن تضع القناني في الداخل، ثم خرج مباشرة.

نظرت إلى توفيق ثم إلى ما يحتويه الكيس، فقالت في نفسها "جن الرجل". بينما تجمعت البنات حول الخاروف وصرن يلعبن به.

دخل أبو دياب واستمر إلى أرض الديار حيث عمود عرشية العنب:

- هاد العمود منيح... توفيق... هات الخاروف واربطوا بهـ العمود.

ذهب توفيق مباشرة من دون أن يفكر

- وإنتي روحي جيبي الولد لهون...

نظرت إليه أمال باستغراب فصرخ بوجهها

- اتحركي!

ذهبت أمال إلى أوضة المعيشة في اللحظة التي جلب فيها توفيق الخاروف وربطه بالعمود.

- منيح هيك... نيم الخاروف

قلب الخاروف على الأرض ووضع عليه ركبته، فصار يمعي، لما أتت أمال بالولد وهي تعانقه وتنظر خائفة، إلى الخاروف المسكين:

- ناوليني الولد!

ترددت أمال ثم نظرت إلى توفيق وهي تعطيه إياه، فراح يبكي، ثم طلب منها أن تساعد توفيق في تثبيت الخاروف، وطلب من البنت أن تأتي وتمد ليَّة الخاروف ففعلت ثم انحنى وبيده الولد:

- بسم الله الرحمن الرحيم... شوف توفيق.

نظر بغباء إلى أبو دياب الذي مد كف الولد وراح يقيس ليَّة الخاروف بشبر الولد:

- واحد، تنين، تلاتة... إلت لي كام شبر بدك؟

- سبعة!

- وهي أربعا، وهي خمسة، وهي ستة، وهي السبعا وهي زمتا!

ثم وقف أبو دياب وهو ينظر إلى توفيق ويضحك ضحكة طويلة عريضة، لتظهر أسنانه المقلوعة، وهو يحمل جبر الذي ألفه وصار يلعب بشاربه، والكل متجمد ينظر إليه ولا يقوى على الحركة.

ليلا والديب

ليلا والديب

"قرَّبت ليلا من تخت ستها، كانت خايفة كتير... خايفة لإنها حاسة إنو اللي بالتخت مو ستها! قام رفع الديب الغطا"... عبقت رائحة قوية وتعالت أصوات خبط ودربكة في أرض الديار، لوَّحت سهيلة بأنفها في الهواء، ثم قالت وهي تقف: "ريحة بارود". خرجت بسرعة، لحقت بها ليلا وسامر.

كان أبو سليمان خارجا من السلملك وهو يلهث، يحمل البارودة والنياشين وأحزمة الفشك، اقترب من الحائط وأخذ يحفر في حوض الزريعة.

قال: الفرنساوي جاية عَ البلد وبدو يشلح الناس السلاح والبواريد.

نامت ليلا مقهورة، لم تسمع باقي الحكاية التي تحمل اسمها، كانت تريد أن تسأل أمها عن شكل الديب، وما في بطنه من أشياء، قال لها سامر الغليظ: "ملان كلو خنافس!"

صادف خروج ليلا من بيت ستها أم حسن بصحبة أمها مرور العسكر الفرنساوي يركبون الأتومبيلات والحناتير والبغال ضمن قافلة كبيرة لا يظهر أولها من آخرها. طلبت منها أمها لما تفاجأت برؤيتهم وغزا وجهها الذعر أن تستعجل وألا تماطل وتتلفت باستمرار وتنظر إليهم، ولم تكن ليلا تستطيع التقدم بسبب بقجة الملابس الكبيرة التي أجبرت على حملها، غير أن وجه أمها المذعور والإلحاح المستمر على التقدم بسرعة جعلها تنسى جزءا من تعبها، وعندما سألتها ماذا يمكن أن يعملوا معهما، استشاطت غضبًا من جديد وطلبت منها أن تمشي من دون أسئلة لأنهم ذئاب وربما يأكلونهما إن تأخروا. استجابت ليلا

ومشت بسرعة، لكنها ظلت تنظر خلسة إلى وديع الأحدب وهو يلاحق العسكر الفرنساوي، يكلمهم ويحاول أن يطلب منهم أكلا وأشياء أخرى.

قالت أمها لوديع أن يذهب إلى البيت، فأبعدها بيده ولم يكترث لما تقول حاولت أن تناديه ولكنه راح صوبهم.

قالت ليلا خائفة:

"بدن ياكلوه؟"

"مشي ولا تسألي كتير!"

استطاعت ليلا أن تغافل أمها عندما رأتها مشغولة في توضيب أوضة المعيشة وتفلت من مراقبتها بعد أن أدركت أنها لن تسمح لها بأي حال بالخروج لتتفرج على العسكر. وقفت أمام باب الدار تراقب العسكر الفرنساوي الذي احتل الساحة الممتدة أمام بيتهم. كانوا يعملون بنشاط في بناء خيمهم بين أشجار الكينا ويتحركون وينغلون مثل النمل. ولا يكادون يفلتون البواريد المربوطة بظهورهم وبرأسها سكاكين مثل سكاكين المطبخ، ويراقبون أبواب البيوت والنوافذ بعيون مثل عيون القطط الخائفة.

أعجبتها ملابسهم الجميلة، والطواقي الملونة التي على رؤوسهم وتمنت أن يكون لها واحدة مثلها.

اقترب منهم وديع فنظروا إليه بذعر ومدوا صوبه بواريدهم، كادوا يأكلونه لأنه لم يسمع كلمة أمها، خافت ليلا كثيرا، ركضت صوب الباب المغلق وراحت تطرقه وتصرخ وتبكي.

حملتها أمها كما تحمل قطة وقرَّبت وجهها إلى المضخة اليدوية وغسلته بخشونة جعلت منخارها يوجعها، ثم أنبتها تأنيبًا شديدًا على خروجها ومخالفة أوامرها، وحبستها في بيت الفئران نصف ساعة لأنها لم تسمع كلمتها. ولولا تشفع أبيها لماتت من القهر.

اختلفت مع سامر الغليظ لما قال لها إن العسكر الفرنساوي بشر مثلنا ولكنهم مجرمون يقتلون الناس، فقالت له: لا بل هم ذئاب، فأمها لا تكذب. ثم تطور الخلاف إلى أن تمسَّكَ كل بشعر الآخر، ولم يحل هذه المشكلة العويصة إلا أمها التي أكدت من جديد بأنهم ذئاب يأكلون الناس.

شعر سامر بالغيظ الشديد، استغل انشغال أمه بحشو الكوسا، لطم ليلا على منخارها بقوة وهرب كالسعدان إلى السطح.

أمرتها أمها أن تكف عن البكاء، ثم أعطتها صحنا مليئًا بالبرغل وطلبت منها أن تأخذه إلى قن الدجاج حتى تطعمه للدجاجات المسكينات الجائعات، رمت الصحن على الأرض وهربت إلى السلملك، تسلقت الكنباية بصعوبة للوصول إلى الشباك حيث مخبؤها المعتاد، استقرت في أرض الشباك ونسيت كل شيء جلست وكأنها تجلس في بيتها الذي ترتاح فيه من غلاظة سامر، وبيتها الذي تخبئ فيه كل لعبها وأشيائها، أخذت تربي فيه أولادها السعادين، تصرخ بهم، وتؤنبهم لأنهم لا يهدؤون أبدًا، وتضربهم برفق كلما أذنبوا وتهددهم بحبس الفئران وتخيفهم من الذئاب.

سمعت أصوات زمامير غريبة، أبعدت الجلالة فاكتشفت أنها تستطيع مراقبة العسكر من الشباك، كان أحدهم يضغط على صندوق كبير معلق على رقبته، يفتح ويغلق مثل إسفنجة ويخرج أصوات زمامير حلوة، والآخرون يصفقون بحماس ويفتحون أفواههم ويضحكون على وديع وهو يرقص كالأبله الأجدب. لامته بينها وبين نفسها لأنه لم يذهب إلى البيت كما أمرته أمها.

مر اثنان من العسكر الذئاب في الحارة من أمام الشباك، فخافت وتراجعت إلى الخلف، اقترب منها أحدهما وراح يبتسم لها ويتمتم كالشياطين، وهو يمد بونبونة مغلفة بألوان حلوة غير أنها خافت أن يأكلها فتراجعت إلى الخلف أكثر، راح يتلاطف، ابتسم لها فظهرت

أنيابه، صرخت مذعورة وتراجعت إلى الخلف، ترك البونبونة عند حافة الشباك وراح، تأكدت من ذهابه، تناولت البونبونة، قلبتها ثم قشرتها وراحت تأكلتها، كانت لذيذة للغاية.

توقَّفت الموسيقى، تناثر العسكر الذئاب وتراجعوا إلى خيامهم ظل وديع واقفًا ينتظر، خرج أحدهم من الخيمة وأعطاه عروسة كبيرة، ربما كانت عروسة جبنة، أخذ يلتهمها بشهية مفرطة، تلمظت، حسدته وتمنت أن تكون هذه العروسة لها.

مالت على مخدتها، أغمضت عينيها... نادتها أمها. أعطتها صرة فيها فطائر من اللحمة الشهية. قالت لها أن تحملها إلى بيت ستها أم حسن لتعطيها إياها، ثم أكدت عليها أن تروح من حارة السبيل، وحذرتها بشدة من أن تروح من الساحة من عند المخيم أمام الذئاب.

خرجت حاملة الصرة، نسيت تحذير أمها فاتجهت إلى بيت ستها أم حسن متخذة طريق الساحة مخالفة توصية أمها لأنها ترغب بالتفرج على طواقي الذئاب حلوة الألوان. رآها العسكري الديب الذي أعطاها البونبونة اللذيذة من دون أن تراه، فأسرع إلى بيت ستها من حارة السبيل. طرق الباب، أجابت من الداخل: "مين هاد؟!". قال لها: "أنا ليلا، جبت لك صرة كبيرة فيها فطاير لحمة طيبة.. شوفي ريحتن ما أطيبا!".

نظرت أم حسن من ثقب الباب، شكت في الأمر، ثم فتحت الباب، حملها العسكري الديب وقذفها في فمه، ابتلعها كلها بلقمة واحدة، ثم لبس الإيشارب الخاص بها واستلقى في فراشها بعدما ترك الباب مشقوقًا من أجل قدوم ليلا.

وصلت ليلا، دفعت الباب المشقوق، نادت ستها، اكتشفت أنها تتوجع وتئن في الفراش وقد تغير صوتها، شكَّت في الأمر، سألتها إن هي رأت

الديب أم لا، فلوحت ستها أم حسن برأسها نافية . سألتها عن صوتها البشع والخشن بعد أن كان ناعما حلوا! فقالت إنها مبحوحة بسبب المرض.

سألتها ما الشيء الذي يبرز من تحت الإيشارب، هي تعرف أن وجهها أبيض وناعم وحلو، فأمرتها أن تكف عن الأسئلة وتقترب منها حتى تقبلها وتعطيها بونبونة. اقتربت وهي حذرة، رفع العسكري الديب الذي حسبت أنه ستها الغطاء ووقف، ثم حملها وقذفها في فمه، أكلها كلها بلقمة واحدة.

رأت ليلا ستها في جوفه متكورة على نفسها نائمة بين الخنافس السوداء المخيفة التي تملا بطن الديب، نادتها فلم تجب، فأخذت تبكي بشدة ودعت إلى الله أن يأتي أبوها ليخلصها هي وستها من هذه الخنافس اللعينة التي لا تفتأ تعضها.

تقدم أبوها من حوض الزريعة في أرض الدار نقب فيه، ثم أخرج البارودة من بين التراب.

شمت رائحة بارود.

جاء أبو سليمان إلى بيت ستها بسرعة، دفع الباب بقوة ودخل غاضبا، أطلق رصاصة على الديب الملعون، ثم تناول سكينة معلقة على خصره، وشق بطنه... فتحت ليلا عينيها رأت أبو سليمان فنطت إليه وعانقته، أخذها إلى أرض الدار ولم تنته من البكاء إلا بعدما أكلت حبة كوسا محشي كاملة.

عندما جاء الليل، اختلفت للمرة الثانية هذا اليوم مع سامر الغليظ، غير أن الخلاف لم يتطور هذه المرة إلى شجار وشد شعر كالعادة بل ذهبا ليتأكدا من أمهما التي دعت إلى الله أن يريحها من خلافاتهما الغبية

التي لا تنتهي. فمن أين لها أن تعرف إن كانت أعين الذئاب تضيء في الليل أم لا؟

ذهبا ليتأكدا من الأمر بنفسهما.

دخلا إلى السلملك، اعترضت ليلا بشدة على سامر الذي كان يريد أن يصعد إلى شباك الخنافس، وحذرته من الصعود إليه غير مرة، ثم ذهبا إلى الشباك الثاني، أبعدا الجلالة وجلسا يراقبا.

كان المعسكر مضاء، رأيا الذئاب يطردون وديع الذي ما كان ليروح، صرخ فيه أحدهم بغضب، فما كان من وديع إلا أن ابتعد ورماهم بحجر، ثم لوح له أحدهم بعروسة، ربما كانت عروسة جبنة لذيذة، تلمظت ليلا، وحسدته، كان بيد الديب الأخرى تنكة كاز، فما أن اقترب وديع حتى رمى عليه الكاز وبلله، فتراجع وديع مستغربا، ثم تقدم ليتناول العروسة، فأشعل الديب عود كبريت ورماه عليه فاشتعل، اشتعل وديع، اشتعل وديع كله! اشتعل حتى أضاء الليل كله، صار اللهب يتصاعد منه عاليا عاليا، صار يركض، يركض وهو يصرخ، يصرخ بصوت عال، سكتت كل الدنيا وهي تنظر إليه

سكتت!

كان اللهب يشكل أثناء هروبه ذيلا طويلا، طويلا كذيل قطة، قطة مذعورة هاربة، ولكنه لا يلبث أن يتقطع بين الحين والآخر.

سكتت الدنيا!

سكتت كل الدنيا! ثم عبقت بقوة، عبقت رائحة بارود قوية.

العنقود الأخير

العنقود الأخير

نظرت من خلف باب المطبخ بعد أن عبأت ملء كفي ملحًا، أمي حبلى، فلا أحد يعلم لِمَ تقاتل دبان وجهها باستمرار، كانت منهمكة بلف ورق العنب، وأختي درَّة، تساعدها بجد. جلست القرفصاء وصرت أمشي كالبطة تجاوزتُ باب المطبخ ثم تقدمت خلسة كي لا ترياني، صعدت على الدرج ولما وصلت إلى العلية تنفست الصعداء.

مددت يدي قدرما أستطيع وقطفت عنقود حصرم، أخذت أبل الحبات الحامضة بالملح ثم أقرشها بلذة كبيرة تحت أضراسي.

كنت صغيرة لم أتجاوز الثامنة، سقا الله تلك الأيام.

في بيتنا، الذي لم يعد بيتنا، ليمونة وعريشة عنب، ما زلت وأنا في الخمسين أنتظر موسم الحصرم، لأني أحب الطعم الحامض وأفضله؛ بل أموت حُبًّا به، وكنت دومًا إذا لم يكن متوفرا، أغزو على قطرميزات المخلل ورب البندورة ورب الرمان ألتهم ما يروي جوعي ذاك، ولكنني لم ولن أجد ألذ ولا أطيب من عريشتنا أبدًا.

انظر إلى أناملي! انظر جيدا! إذا ما دققت بينها فسترى الملح الذي ما زال عالقًا إلى يومنا هذا. ورغم أنني وضعت تركيبة أسنان صناعية، فلم تستطع ولن تستطيع أن تنتزع طعم الحصرم الذي كنت أقطفه من عريشتنا أبدًا، ما زلت ضرسانة، ما زال ذلك الطعم هنا تحت لساني وفوق لثتي، ولا يمكنني، بأي حال من الأحوال، أن أنساه.

- هند ... يا هند!

أخذت أمي تناديني، فأخي يبكي، وسوف يقطع عليَّ هذه المتعة التي كنت أقتنصها اقتناصًا من حصار أمي، وعندما استطعت تحقيقها بكى هذا الغليظ بينما أمي مشغولة بطبخ البيرأ، وقد ارتفعت حدة ندائها، بل إنها أخذت تهددني بشدة، ولم يكن هنالك أي مجال للاختباء أكثر، لا بد من أن أنزل لأرى ما حل به، فقد كنا نخاف عليه كثيرًا.

تركت العنقود في مكان أمين وأسرعت قبل أن تغضب، بعدما نفضت يديَّ جيدا بفستاني البيتي الباهت والمسموح لي أن أوسخه كيفما أشاء. حملته من سريره الخشبي وأخذت ألومه ثم أهدهد له وأناغيه كي يسكت، ولكن من دون جدوى.

وقد خلصني من هذه المحنة وصول ستي أم حسن التي كانت تأتي كل يوم تقريبًا، تقرأ له من القرآن وترقيه، تضع له التعويذات حسب الحاجة. فقد مات لي أخوان قبله، لم يُقدِّر الله أن يعيشا؛ حمزة الأول عاش لساعة واحدة؛ والثاني لثلاثة أشهر فقط.

وكلما تنجب أمي صبيا كان اسمه يأتي معه، وحمزة الثالث هو الوحيد الذي عاش إلى هذا العمر.

كان الخوف من أن يموت الشعور المسيطر على الجميع، ومنذ أن يبدأ بالبكاء يتصدى الجميع لمراضاته، كدنا نحميه برموش العيون لو أمكن، هذا إلى غير ذلك من النذور التي نذرت إلى النبي هابيل والنبي يحيى وغيرهما، كل ذلك لكي يعيش ويبقى. ويمكنك أن تسمع سيلاً من الأدعية والآيات القرآنية منذ دخول ستي إلى الغرفة، حيث أخذت هي مهمة إسكاته، وكان قد اعتاد عليها، فقد لجأ إلى الصمت فعلا، بل إنه أخذ يضحك، وستي تناغيه بفرح وسرور كبيرين تقوم بإزالة التعويذة القديمة ووضع أخرى جديدة، وهكذا كل يوم، كل يوم.

اضطررت تحت مراقبة أمي أن أساعدها، وظل العنقود في مكانه لم يكن لدي القدرة على أن أفكر بغيره، وبعدما مر الظهر وكانت أمي تتذوق البيرأ الذي بدأ ينضج، تناهى إلى المطبخ صوت ضربات حصان أبي، ركضتُ بكل ما أستطيع من قوة إلى باب الدار لأستقبل أبي وأفوز بعطاياه، بينما أختي درة كانت قد تخلت عن هذه العادة من زمان لأنها أصبحت صبية، وهذا الأعمال للأطفال فقط، بيد أني كنت أدرك أنها تغار مني، ولم تنس أمي أن تطلب مني وضع الإيشارب على رأسي، وصلت إلى أبي الذي رمى بالأكياس على الأرض وفتح يديه ورفعني إلى ما فوق رأسه، وراح يقبلني ويعطيني نوغا وشوكولا، وعندما تصل أمي وأختي ينْزِلني ويسود شيء من صمت، أمي عينها في الأرض مرحبة بكلماتها المعتادة:

- الحمد لله على السلامة ابن عمي
- الله يسلمك (وهو يعطيها الأكياس)
- الله يخلي لنا ياك
- شلون حمزة
- بيبوس ايدك
- بدنا الو أخ دغري، ديري بالك على حالك

وكانت أختي قد تعلمت تقليد أمي في كل شيء.

كان أبي رجلاً بكل معنى الكلمة، حنونًا وعطوفًا، وكان غاوي عز يحب أن يفرح ويصرف علينا، بعكس أمي التي كانت متقشفة صارمة محافظة على التقاليد، فقد ورثت ذلك التعصب والمشيخة عن والديها. ولذلك؛ فقد كان هناك خلاف بسيط بينهما، لم يتطور إلى حوار أو صدام بالمرة، لأنها تعلمت أن تخضع لزوجها وتحقق رغباته وحسب، ومن جهة أخرى؛ كانت تحبه منذ الصغر، فهو ابن عمها، وأتيح لها أن تراه،

وهو كذلك، وإن كان كاشفها بحبه عشرات المرات، فإنها لم تكاشفه بذلك بالمرة.

استيقظتُ على صراخ أمي. ليلة البارحة قلقتُ وأنا أتخيل السيران الذي وعد أبي أن يأخذنا إليه اليوم التالي، رفعت عن وجهي الغطاء لقد ظننت نفسي أني في حلم، وقفت وركضت خارج الأوضة ووقفت أمام أوضة أبي وأمي؛ كانت ترفع حمزة وتحاول أن تجعله يتنفس وأن ترضعه، ثم أخذت تندب وتصرخ وأبي ينهرها. اختبأت خلف الحائط لا أستطيع أن أمنع نفسي من البكاء، ففُتِحَ الباب، كان أبي يحمل حمزة ويركض به إلى باب الزقاق وأمي تدعوه أن ينتظرها ثم خرجت هلعة وهي تلبس الصاية وتضع الفوطة على رأسها.

استسلمت أنا وأختي للبكاء ساعة كاملة، ثم مللت ورحت ألهو فنهرتني بشدة، كانت تريدني أن ألتزم الحزن والبكاء من أجل أخي، ولكنني لم أستطع ذلك. جاءت ستي بعد قليل، وازداد القلق قلقًا عندما رمت بكفها على ذقنها وصارت تمشي وتتكلم مع نفسها.

عاد حمزة سليما معافى. قال الطبيب بعد أن فحصه جيدًا: " ليس به شيء". غير أن أمي تغير وجهها عن ذي قبل، ونهرتني عندما ذكّرت أبي بالسيران، عاد أبي ليطمئنها ورحنا، لكن بنشاط أقل وفرح أقل.

صارت أمي تعطي كل وقتها لحمزة، وبعد يومين أو ثلاثة، حدث الذي كان الجميع يخشى أن يحدث. كانت أمي تهدهد لحمزة في أرض الدار، وتدندن له أغنية وهو لا يكاد ينتهي من البكاء، بينما أنا وأختي نعمل وهي تديرنا. توقف حمزة عن التنفس فأخذت تدعوه لكي يرضع ولكنه لم يستجب، وكان وجهها ينقلب شيئا فشيئا ويغادره لونه، فطلبت من درة أن تذهب بسرعة لنداء ستي وعادتا بسرعة أيضًا، كنت أبكي بشدة، وأمي ما زالت تحاول أن ترضعه ووجهها يزرقُّ رويدا رويدا مع بشرة حمزة الميت وبصعوبة جمة استطاعت ستي أن تنتزعه منها.

يومها أتى أبي مبكرا على غير عادته وكأنه أحس بشيء ما، تركنا إلى السلملك وأخذ يبكي وحدي سمعته ولم أقل ذلك لأحد، أخواي اللذين ماتا من قبل لم يعش أكثرهما لأكثر من ثلاثة أشهر، أما حمزة فقد عاش لتسعة أشهر والجميع قدر أنه سيعيش ولم تستطع النذور والتعاويذ كلها والأطباء أيضا أن تجعله يحيا، خاصة وأن الطبيب فحصه قبل يومين ولم يجد به شيئا.

انحنى ظهره قليلا ولم يعد يهتم بكي شاربيه، وبعد أن كان صوته مصقولا وكأنه مدرب، داخله شيء الخن.

* * *

بعدها تسلق الأرق إلى وجه أمي، صارت نزقة أكثر، صارمة أكثر، تدقق على الصغيرة قبل الكبيرة، وكنا أنا وأختي أمامها، لطالما شعرت في هذه الأيام بأنها تكرهنا وتتمنى لنا أن نموت، فقد كان تركيزها بعيدًا عنا، وكان أملها ينمو مع الجنين الذي في بطنها في أن يكون ولدا.

ولم يطل الانتظار كثيرا، حتى دب الطلق وجيء بالداية، أبي كان قلقا جدًّا. أو لم أره قلقًا هذا القلق من قبل. يخرج من السلملك ويمشي في أرض الدار ثم يجلس، يقف ويمضي، كانت ستي تساعد الداية وأمي تصرخ بأعلى صوتها وتتألم وأنا أبكي خائفة ثم تجرأت وفتحت الباب ونظرت اليهم، زأرتني الداية بعيون غاضبة وزجرتني وهي تلوح لي بالمقص فعدت هاربة إلى أرض الدار.

بعد قليل، سمعنا صوت المولود، فخرج أبي من السلملك واندفع صوب أوضة المعيشة، ثم وقف حائرًا عند الباب يفرك بيدية وهو يتلو آيات قرآنية، وما أن فتحت ستي الباب ونظرت إليه حتى ارتد خائبًا من دون أن تقول له شيئا استدرك للحظة ثم أكمل طريق إلى السلملك.

كانت غيوم الخيبة تملأ الوجوه، والريح تنْزَع الأوراق من الأشجار، ولم أتذكر عنقود الحصرم الذي خبأته في مكان أمين إلا عندما صفعت وجهي ورقة من العريشة.

بعد ساعة، سمحت لي ستي أن أدخل إلى جانب أمي جلست بجانبها، نظرت إلي بخوف قبلتني وهي تبكي كما لم تقبلني من قبل، وكأنها تراني للمرة الأولى، وكأنها أحست بشيء ما قادم، حملت أختي ريا ولم يكن لها اسم بعد، كانت بشعة وظننت أنها ستظل على هذه الحال. دخل أبي يضحك بجهد ضحكة صفراء:

- الحمد لله اللي قمتي بالسلامة
- الله يسلم عمرك ويجبر بخاطرك
- عطيني هـ البنت لشوفها
- تفضل
- بسم الله ... اللهم صلي عَ النبي ... شو هـ الحلاوة هي؟

قبلها وعلق ليرة ذهبية نقوطا ليرة ذهبية، ثم أعادها لأمها ثم خرج.

* * *

صارت أمي وكأنها سلمت أمرها لشعور وإحساس ما. حيث أنها تقربت منا أنا وأختي في هذه الفترة الممتدة لثلاثة أشهر أو أربعة.

راحت النار تشتعل في صدر أمي.

يا حسرتي عليك يا أبي، كان كلما هدَّأ النار التي بداخلها من جهة استعرت من جهة أخرى، وهو موقع انتقاد دائما، فإذا أكثر من الحاجيات من الفاكهة واللحم مثلا، اتهمته بالتبذير، السيرانات التي كنا نخرج بها أيام الجمعة صارت شبه معدومة حتى أنه خفف من عادة الخروج ليلا

للسهر مع رفاقه، حفاظا على مشاعرها، وهي تعلم ذلك جيدا، وإن لم يكن من داع للتوتر كانت تخلقه بالحيلة، وصارت الحياة نكدًا بنكد.

كان بيتنا جنة وانقلب، للأسف، إلى جحيم، كان الناس يحسدوننا على عيشتنا وصرنا نَحسِد كل الناس على راحة بالهم.

في يوم من ذات الأيام، كان أبي قد وعدنا بالذهاب إلى الربوة وفي اليوم المحدد لم تقبل أمي أن تذهب معنا فذهبنا وحدنا، ولم نفرح كثيرا لعدم وجودها معنا، عدنا مع العصر وجدنا أمي وحيدة ملثمة ووجهها لا يكاد يفسر، يومها خرج أبي للسهر مع رفاقه وكان أن تأخر، وكانت المشكلة التي لن تنتهي بالمرة.

ظلت أمي شهرًا كامل تنام في غرفتنا وتتلثم عندما يأتي أبي ولم تكلمه كلمة واحدة تقوم بواجباتها المعتادة بشكل ميكانيكي، وقد حاول أبي كثيرا من المرات أن يعيد الصلح فلم تجد محاولاته نفعا.

* * *

بعد شهر وبعدما حل المساء في تلك الليلة المشؤومة، كانت السماء كئيبة منذ الصباح والبرق يخترق زجاج النافذة فيكشف وجه أمي الملثم بغير ملامح ووجه أبي الذي جلس يدخن بكثافة خلف المدفأة وقد حمل ملقطًا في يده وأخذ يحرك الجمرات المتوهجة، والصمت راقد بثقله على الغرفة ولم نكن نسمع من شيء إلا الرعد المخيف وهطول الأمطار المتساقطة فوق مزاريب الحارة، وعندما ضرب رعد قوي على الدنيا قفزت إلى جانب أبي مستنجدةً به، فأجلسني في حضنه وأخذ يمسد شعري، ثم غادرت إلى مكاني:

- هند
- نعم

- بكرة مسافر بشغل على حلب ... قومي جهزي لي غراضي وزوادة الطريق
- حاضر

فتحت الباب أريد أن أخرج كنت أشعر بالخوف الشديد وقد ترددت قبل أن أذهب فنادت لي أمي بأنها هي من سيقوم بهذا العمل.

فيما بعد صار أبي يذكرني بتلك الليلة العصيبة وصار وكأنه قد عاش بها وحدها وكأنه لا يعرفني إلا من خلالها، كلما كلمني عن تلك الليلة اتهم نفسه بالذنب، ولأني مدركة بأنه غير مذنب، كنت أقول بأن الكلام قد انتهي فيجيب بأنه لم ينته، ويعاود الحديث في المرة القادمة من جديد.

حاولت أن أتذكر كثيرا كيف نمت فلم أفلح، فتفاصيل تلك الليلة التي كنت الشاهدة الوحيدة عليها لم أتعرف على نهايتها حتى الآن.

عند الصباح، تناهى إلي وأنا في الفراش أصوات العصافير والديك، المزاريب تعصر ما تبقى من مياه الأمطار ولمحت الشمس كيف باغتت أرض الدار وتسللت إلى الغرفة بخفة، رفعت اللحاف عني في اللحظة التي سمعت بها نحيب أمي ووقع خطوات حصان أبي في أرض الحارة، أمي ما زالت ملثمة ولكنها بعيون تذرف الدموع وتنتحب بصمت، وقفت بسرعة وخرجت إلى باب الدار ففتحته وصرخت بأعلى صوتي باتجاه خارج الحارة:

- يابو ... يابو

ولكنه لم يسمعني، كانت خطوات الحصان الموقعة بإيقاعات مرعبة تتلاشى رويدا رويدا، ناديت عدة مرات.

عدت يائسة دونما كلمة واكتشفت أنني خرجت حافية ولم أضع إيشاربا على رأسي فدخلت وكنت أتوقَّعُ أن أتلقى تأنيبا من أمي غير أنها لم تؤنبني بل جهشت ببكاء أخرس:

- تعالي تعالي لقلبي

وضمتني إليها بشدة فصرت أبكي معها ثم قبلتني كما لم تقبلني من قبل، وكأنها تراني للمرة الأولى.

* * *

الأيام التالية عشنا على قلق، حتى أنها صارت تهمل من واجباتها رويدًا رويدًا، كانت تقع في شرود متواصل، بل طارت أفكارها مع أبي الذي نشر الصمت على البيت كله، ولم تعد أمي براغبة حتى في قص حكاياتها الممتعة، حتى أن غبوني وحكاية العصفورة والأولياء الصالحين قد غادرت مخيلاتنا قبل النوم وحل مكانها الصمت والرعب الذي عشش في صدر أمي، وصرنا نشتهي أن نسمع وقع خطوات حصان أبي.

ومرة كنت نائمة وحلمت بأنني أسمع وقع الخطوات تلك، فوقفت من الفراش وركضت إلى باب الدار وأنا أقول بأعلى صوتي:

- إجا أبي ... إجا أبي

وكانت أمي تشتري الخضار من البائع المتجول، وبما كان موجودًا من مؤونة في البيت وبعد مرور عدة أيام، طرق الباب!

طرق لعدة مرات كانت تعد لنا الطعام في المطبخ وركضت بسرعة كنت أول مرة أرى بها أمي تركض، حافية ومن دون أن تتلثم:

- مين؟!
- يا اختي هون بيت أبو حمزة؟
- أي هون بيتو... مين بيريدو؟
- هو بعتني... في معي مكتوب منو

فتحت الباب قليلا وتناولت المكتوب وهي ترتجف، شكرت الرسول، ثم أغلقت الباب دخلت إلى أرض الدار وهي لا تكاد تحملها أقدامها، وسقطت على الأرض مغميا عليها.

- لم تقل كلمة واحدة.

وبقينا ليومين نلملم بعفش البيت، ولم تبقِ أمي على شيء يخصنا، ولم تبق شيئا من مؤونة إلا ما يحتاجه أبو حمزة، ها نحن نتهيأ للخروج من البيت، أخذت عيوني تجوب أرجاء البيت أودعه. نظرت إلى الشرفة وتذكرت عنقود الحصرم، فركضت إليه بسرعة، وقبل أن أصل صرخت أمي:

- هند... يا هند

فلم أجبها.

- ولك يا هند وينك أمي؟

بحثت في المكان الأمين الذي خبأت به العنقود فوجدته وقد صار لونه أسود، رفعته بين أغراضي، أجبت أمي بعد أن اطمأننت عليه:

- يللا يامو جاية
- ركض تقبريني ... هون ما بقا بيتنا

أخذت الأبواب والشبابيك تصطفق عندما هبت ريح وبدأت تدوي في أرجاء البيت كله وكأنما حل ساكنون جدد من الأشباح، خطت أمي ودمعة على عينها مودعة:

- يللا الحقيني امي

تسربت أمي خارج البيت وتسرب معها الأمان والسكينة وصارت الأشباح تلاحقني، فلحقت بها مسرعة فوجدت باب الدار مفتوحا التقطه ودفعته بكل قوتي، فدوَّى كالرعد في أرجاء البيت.

منامات رئيفة

منامات رئيفة

أحمد مستلقٍ على أرض الديار، غير أنه أكبر من حجمه بكثير، أكبر بمرة أو مرتين. رئيفة تنظر إليه بقلق من شباك المطبخ، تستغرب، تفلت مفاصلها ويبرد جبينها. لقد رأيتِ هذا المشهد، أين؟ أين يا رئيفة؟ لم تتذكر. تلتفت إلى بستانها الصغير حيث الدوالي من كل الأنواع، تعربش على كل الحيطان، تتنهد بشيء من قلق، ثم وكما كانت متوقعة، تتحول الدوالي إلى معابر لجيوش من النمل الأحمر، تنْزِلُ على الحيطان مسرعة إلى أحمد المستلقي، ترتجف رئيفة بشدة، تسقط مفاصلها على الأرض، ويتجمد رأسها، بينما جحافل النمل تستمر إليه وقد صار أكبر من حجمه بأربع مرات، فتتخلله وتنْزِل من تَحته وتسحبه مثلما هو، وكأنه موضوع على دوالايب صغيرة غير مرئية، تسحبه صوب المدخل إلى خارج الدار. يقف جسمه الكبير عائقًا أمام خروجه، يبدأ سربان من النمل بنهش يديه وقطعهما حتى يستطيعوا تمريره، تقطع اليد الأولى، ثم الثانية، دون أن تسيل نقطة دم واحدة، يغادر الموكب المدخل، تسمع رئيفة باب الزقاق يفتح، ثم تسمعه يغلق، أما مفاصلها، فتتحول إلى قطط تموء بإلحاح شديد تريد أن تأكل.

تستيقظ فزعة، تطمئن لشخير أحمد، وتظل ترتجف حتى يأتي الفجر ويقول المؤذن: الله أكبر، فترتاح.

إنه المنام نفسه يأتيها للمرة العاشرة منذ ثلاثين سنة، فتكتمه وتتستر عليه وترميه في بير مثل كل مرة، لم تروه لأحد قط، حتى لا يتحقق فتفسيره سيئ ولا يجوز أن تتلفظ به بأي حال. إنه المنام نفسه، ولكن هنالك زيادة ما، لقد أخرجته أسراب النمل من باب الزقاق، سألت ربها:

ماذا تفعل؟ اليوم، سوف تفعل مثلما فعلت كل مرة، ستمنعه من الخروج ولن تبوح بالمنام مهما كان.

تحاول وهي تقدم له قهوة الصبـــح أن يشـرق وجهـها بضـحكـة، غيـر أن أناملـها تـرتـجـف بخيانة صريحة، تتماسك في آخر لحظة، وتحتفظ بجزء من الضحكة قبل أن تتسرب مع اضطراب صدرها، غير أن سؤاله المعتاد في كل صباح، عما رأت في منامها، يأتي صاعقًا فيبدد الابتسامة الحلوة، يعكر وجهها الحلو بغيوم تنذر بمصيبة، يجلب الغبار إلى الوجه العذب، فتُهرِّب وجهها صوب الدوالي لتطمئن. قامت إليها، قلبت أوراقها، نقبت عن النمل الأحمر، عادت تحت وطأة نظراته المستغربة. فلم يعد ممكنا تأجيل الموضوع، تطلب منه بإلحاح ألا يـذهب إلــى الدكـان فـي هذا اليوم. بعد صمت قصير، يطلب منهـا أن تسـرد لــه المنام الذي رأته.

منذ أن اطمأنت إلى شخيره، حمدت الله وربطت لسانها عنه بالخيط والإبرة، ودربت نفسها على قول الأشياء التي يجب أن تقولها فقط، سرد منام بشع كهذا يعني وجوب تحققه في واقع الحياة، لن تسرده مهما كلَّف الأمر.

لم يستجب لتوسلاتها في البقاء لأنها لم تذكر سببًا وجيهًا، فقرَّر أن يغادر إلى الدكان. غير أن تَخوفاتِها الغامضة جعلته يتريَّث ويُحقِّق، يتقدم خطوة، يتراجع خطوتين، لعلها تحكي السبب، لكن من دون فائدة.

لقد ظل منامها الصباحي الذي يرسم في العادة نهاره، حبيس صدرها لهذا اليوم، لم تلفظ منه كلمة.

لأجل نور عيونها فقط، سوف يسلم العمل هذا اليوم للأجير بعد أن يسوِّي بعض الحسابات، ثم سيعود مسرعًا ليقضي معها النهار كله. وعدها وهي تلاحقه بقلق، بأنه سوف يجلب معه لحومًا متنوعة ملائمة

للشواء، ولن يأبه لداء النقرس، ولا لتوصيات الأطباء الغبية، فهذا اليوم كله لرئيفة من دون غيرها، استدرك وهو يعبر الردهة المظلمة، وأكد أنه لن يطيل غيابه، ولما غاب في نور الحارة، عاد وأطل برأسه بحركة محببة، كأنه عاد شابًا في العشرين، طلب منها أن تشتغل بالسلطة والفتوش وتشعل الفحم وتُهيئ الأرغيلة، ثُم تجمد وتجمدت ابتسامته بين شاربيه، لعلها تتكلم أخيرًا، فلم تلفظ إلا الرجاءات الملحاحة في عدم ذهابه، صرخ في وجهها رافضًا أن يسمعها حتى وإن تكلمت، ولقد غادر وهو يُلوِّح بيديه والرذاذ المُتطاير من بين شاربيه يحوم في الهواء، أمام وجهها المُتجمد الدامع.

مر على أبو رياض الحلاق، قش ذقنه، ثم اتصل من عنده بالأجير بأنه لن يأتيَ هذا اليوم.

لم ينتبه بالمرة إلى ثرثرة أبو رياض، كان يفكر برئيفة، كم يحبها! وكم يزداد حبه لها يوما بعد يوم. لأكثر من أربعين عاما ظلت ترسم يومياته وكان وجهها عند الصباح يرسم مسيرة نهاره دائمًا خيرًا كان أم شرًّا، وهي تروي المنام، بشعًا كان أم حلوًا. يعدها السبب الرئيسي في نجاحه فقد كان عندما تزوجها يملك ربع دكان في سوق الهال، أما اليوم فهو يملك ويدير سبع دكاكين بفضلها، فيستيقظ مبكِّرًا لكي يعرف ما سوف يحصل معه، فتسرد له المنام ويكون إيذانًا أن يشتري مثلاً خيارًا أو بصلاً، فيفعل ما تُوحي إليه بالضبط حتى كوَّن هذه الثروة الكبيرة.

ولذلك كله ظل مُخلصًا لها طوال عمره، ولم ينظر إلى غيرها، مع أنها لم تنجب له إلا خمس بنات. إنه لا يبدل ظفرها بنساء الدنيا كلها.

منذ أن أتت إلى الدنيا، لم تجد أمها التي ماتت بعد ولادتها مباشرة، بل وعت امرأة ظالمة حيث كان أبوها متزوِّجًا منها، كبرت بقدرة قادر ولم يكد أبوها أن أتى لها بأحمد الذي يكبرها بعشر سنين، فأخرجها من الجحيم الذي لم تعد إليه أبدًا، وراحت تبني جنتها التي ترفض الخروج

منها لأيِّ سبب من الأسباب، همُّها الوحيد أن تحافظ على زوجها وبناتها وتربيهم، ولأنها بنت حلال ودرويشة، كاد يحميها برموش عيونه.

أول ما فتح الباب، صرخ بأعلى صوته عما جرى للأرغيلة التي طلبها منها، لقد حقَّق رغبتها في عدم الذهاب حتى من دون أن يعرف السبب، فاشتعلت وجنتاها مثل دراقن، وراحت تبكي من الفرح. اتصل باللحام وأوصاه أن يبعث لحومًا متنوعة تصلح للشواء.

ومناماتها كلها من النوع المشوق والطريف في آن معا، وأجمل ما فيها سردها للمنام، فليس من عادتها أن تؤشر بيديها، بل لها نبرة عذبة تشد، ووجه يفضح ما بداخله مباشرة، وهي تدرك هذه الصفات فتؤكدها وتُحافظ عليها. مرة، شافت بنتها ليلا تأكل فأرا حيًّا بعد أن تلفه بالخبر، فلم يلبث أن أتاها عريس في اليوم ذاته. ومرة أخرى، شافت بنتها ساميا تتأرجح بجانحي أبو سعد وهو يطير فوق أرض الديار، فتخرجت من الجامعة في اليوم ذاته.

استلقى على الفراش في أرض الديار. نظرت إليه من الشباك، فصرخت مرعوبة من استلقائه على هذه الطريقة، ركضت إليه وجلست بجانبة تسأله عما حصل له أو إن هو يشعـر بشيء ما؟ ضحك وطمأنها، ثم سألها عن الأرغيلة. ذهبت إلى المطبخ وهي تتلفت إليه، ثم نادته، اقتربت منه فزعة نادت ثانية، غير أنه لم يُجِبْها! أخذت تدعوه إلى الوقوف من أجل الأرغيلة التي بدأت تجهز، غير أنه ظل على سباته ولم يجب، تجمد جبينها، واصطكت مفاصلها.

بعد جهد جهيد، استطاعت أن تصل إلى التلفون، فراحت أصابعها تحوم فوقه من دون الوصول إلى نتيجة.

ولم يلبث أن وصل الجميع ومعهم الدكتور، إنا لله وإنا إليه راجعون لقد توقف القلب عن العمل والله الرحمن الرحيم، ولم تلبث أن قامت

مناحة، وتصاعدت موجات البكاء ورئيفة تنظر مستغربة لا تعرف ما يحصل، أخيرًا نفخت وركبت مفاصلها المبعثرة، وقفت ودخلت واثقة إلى أوضتها تحت استغراب وحيرة الجميع.

لم تغف أكثر من دقيقة، خرجت بعدها صرخت على الجميع وأمرتهم بالسكوت التام والانصراف من القاعة لأنها ستتكلم مع أحمد بشيء خاص لا يجب أن يسمعوه ، وجلست بالقرب منه، راحت تحكي له منامًا بالطريقة والنبرة نفسها التي كانت تسرد له مناماتها كل صباح، والجميع يراقبونها من الشباك ويبكون بخوف وشفقة، وقد ظنوا أنها فقدت عقلها، فلم يلبث الميت أن رفع رأسه وجلس ثم كلم رئيفة بعتاب:

- شو صار بالأرغيلة؟!

فردت عليه من دون أي مفاجأة

- على عيني وراسي!... جاهزة.

وقفت واثقة من نفسها وتحركت خارجة كعادتها كل عمرها حتى تأتي له بالأرغيلة.

بدي ضلني بنت

بدي ضلني بنت

تجمع الفريقان عند شجرة الجوز، كانوا ينظرون إلى سامر اللاعب الجديد، وكأنهم ينظرون إلى كائن نزل من مركبة فضائية من المريخ قبل قليل، وطلب أن يلعب معهم.

قال أحدهم باستخفاف:

- ليش إنتي بنت ولا صبي؟
- هاه هاه هاه !

انفجر ولد سمين جداً يتكئ على جذع الجوزة ويحمل قضيباً ، انفجر بضحكة طويلة وقوية جعلته يقع على الأرض وهو يشير إلى سامر الذي ينظر إليه بغيظ :

- يا شباب مين معو دبوس لحتى نفس هالبالون.

قال سامر ذلك، فساد ضحك قصير :

- هاد أسمو لأطينة.

فضحك سامر ثم اقترب منه مارادونا وقال :

- شلون بدك تلعب وأواعيك نضاف ومكويين؟ ... وليش هيك شعراتك طوال متل البنات؟
- هاه هاه هاه هاه !

انفجر لأطينة بضحكة قوية بينما رمقه سامر ومارادونا:

- أنا ما بئبل لعبك بفريئي! ... العاب مع الفريء التاني ... إزا إبلوا.

قال مارادونا الولد صاحب الوجه الشقي الذي يحمل الفوتبول على موازاة خصره ويعلق صفارة الحكم السوداء في رقبته، قال ذلك لسامر بعد أن شمله بنظرة احتقار من فوق إلى تحت، ثم التفت وراح صوب مركز الساحة الترابية،بينما تابع لأطينه ضحكه، انقهر سامر وقرر أن يهزم هذا المارادونا المغرور.

قَبِل الفريق الثاني بعد أن أجرى اجتماعاً قصيراً أن يلعب معهم شرط أن يلعب في الدفاع، فالهجوم يحتاج إلى لاعب فيه شيء من الرجولة.

رغم كل هذه الخرينات قبل سامر ! قَبِل لأنه لم يعد يطيق البقاء وحده في مزرعة أبيه من دون أولاد يلاعبهم. لكن أكثر ما أغاظه لأطينه هذا الولد السمين لا يتوقف عن النظر إليه والضحك بسخرية.

بدأت المباراة.

فريق مارادونا كلهم من الأقوياء وكلهم يلعبون على هواه، هو من يختار فريقه لأنه صاحب الفوتبول، وهو الحكم أيضاً، رغم كل ذلك قرر سامر أن يهزمه شر هزيمة.

أول اصطدام بين مارادونا وسامر، عندما حاول اختراق الدفاع فتصدى له سامر وخلصه الفوتبول بخفة وأعطاه لواحد من فريقه، فما لبث مارادونا أن أطلق صفارة طويلة ثم قال:

- فاول.
- هاه هاه هاه هاه!

نظر سامر إلى لأطينه الذي وقع على الأرض من شدة ضحكته ثم اقترب من مارادونا، وكان يريد الاعتراض، فاقترب واحد من فريقه

وهمس في أذنه بألا يعترض حتى لا يطرد من المباراة ويخسر اللعب، ورغم أنه تراجع ولم يعترض فقد رفع مارادونا من جيب قميصه كرتاً أصفر في وجهه لأنه قرأ أفكاره.

كانت المخالفة ضربة مباشرة، ومارادونا سينفذها بطبيعة الحال، صار سامر يراقبه فوقف في مكان مناسب. حط ماردونا الفوتبول بيديه ثم رجع إلى وراء، رجع، رجع، رجع، ثم هجم! هجم بكل سرعته، شاط! شاط بكل قوته صوب المرمى، طار الفوتبول إلى الزاوية، فنط سامر باتجاهه، ونطحه فخرج الفوتبول إلى الأوت. اقترب منه أفراد فريقه وصاروا يضربون أيديهم بأيدي بعض.

حميت المباراة، وقلت صفارات ماردونا شيئا ما، وصارت الجهود مضاعفة، لكن من دون فائدة ولما تحول أغلب فريق ماردونا وصار متجمعا أمام مرمى فريق سامر، انطلقت صفارة لما أحس بفشل الهجمة، الكل توجه صوبه مستفسرا عن المخالفة، فقال:

- هانس، ضربة جزاء!
- هاه هاه هاه هاه

التفت الكل صوب لأطينة المشجع الوحيد لهذه المباراة وهو مرمي على الأرض فارطا من الضحك، ثم عادوا إلى المباراة، اقترب سامر من أذن حارس المرمى وكلمه هامسا، بينما يحط ماردونا الفوتبول في نقطة ضربة الجزاء، ثم وقف رجع إلى وراء، رجع، رجع، ثم هجم! هجم وشاط بكل قوته صوب المرمى، ارتمى الحارس على الجهة اليسارية فأفلت الفوتبول من بين يديه ودخل هدفا لصالح فريق ماردونا.

تابع الفريق ضغطه القوي ولكن من دون فائدة اضطرت ماردونا لإعلان عقوبة ضربة جزاء ولكن الحارس صدها هذه المرة.

طلب سامر من واحد من فريقه الوقوف في منتصف الملعب، ثم تم إفشال هجمة وأرسلها طويلة إليه، التقطها واستطاع أن يحاور اثنين من لاعبي فريق الخصم والحارس ويسجل هدفا بباطن قدمه، كان هدفا سهلا ونظيفا ولا غبار عليه. جن فريق سامر وعانقوا بعضهم بعضا بحرارة شديدة. ارتفع الدم إلى رأس ماردونا ولم يجرؤ على استخدام صفارته.

ضغط فريق ماردونا ووقف حارسه بملل قرب منتصف الملعب فلم يكد يصل الفوتبول إليه، تجمع كل اللاعبين أمام مرمى فريق سامر، تسلل اللعب نفسه إلى القرب من منتصف الملعب فما لبث أن وصله الفوتبول وانفرد أمام وبنفس الطريقة سجل هدفا نظيفا بباطن قدمه لا غبار عليه.

حدث ما لم يكن متوقعا لقد انتصر فريق سامر. ساد صمت قصير ثم بدأ الصراخ وسادت فرحة عامرة. ولقد فرغ صدر ماردونا من الهواء، والصفارة على فمه ما كان عنده ولو نقطة ليصفر مخالفة كاد يموت من الغيظ. أخيرا انطلقت صفارة قصيرة ساد بعدها صمت، ثم قال:

- أوف سايد

صرخ سامر واقترب منه معترضا، فما كان من ماردونا إلا أن هجم عليه وهو يقول:

- بدي نيك إختك يا ابن المنيوكة!
- ما في غيرك ابن ستين منيوكة!

واشتبكا وبدأت مشاجرة حامية، بينما الكل ينظر إليهما بدهشة.

- هاه هاه هاه هاه هاه!

كمش سامر رقبة ماردونا بقوة، فضربه على بيضه، أفلت سامر رقبته وانحنى من الوجع، مباشرة أتته ركلة على بطنه، فوقع على الأرض، نط ماردونا فوقه وثبته على الأرض وهو يضربه بقبضة يده على وجهه ضربات موجعة، ثبته تماما بحيث لم يقدر أن يأتي بحركة واحدة

- هاه هاه هاه هاه هاه!

حاول أن يفلت من دون فائدة، فلم يجد وسيلة إلا أن يهاجمه بطريقة ثانية فمد يده بقوة على بيضه... لم يجد شيئا!

تراجع ماردونا عن سامر، نظر إليه نظرة غريبة متأملة، ثم صرخ بأعلى صوته:

- بدي نيك إختك يا ابن الشرموطة!

وانقض عليه من جديد، وصارا يتمرغان على التراب، وصارت الضربات أشد قسوة، حتى تعبا تماما وصارا مثل التراب، فجلسا متباعدين يرمق بعضهما الآخر وهما يلهثان بشدة:

- هاه هاه هاه هاه هاه هاه هاه!

هبت نسمة قوية، وبسرعة أتت غيمة كبيرة وراحت تمطر بغزارة، انسحب الكل إلى تحت الجوزة، وظل سامر وماردونا وبقره الفوتبول يرمق بعضهما الآخر حتى غسلهما المطر، ثم وقف ماردونا حمل الفوتبول بجانب خصره وراح صوب الجوزة، لحق به سامر بعد قليل وقد أصبح في نهاية المباراة أوسخ الجميع.

- هاه هاه هاه هاه هاه هاه هاه !

أتى ولد راكب على دراجة وهو ينادي :

- أمل! أمل! أمل!

فنط مارادونا وجلس في تجويف جذع الجوزة من دون أن يراه الصبي أبو الدراجة:

- هاه هاه هاه هاه!

وعندما وصل بالقرب منهم:

- مرحبا شباب! شفتوا إختي أمل؟
- لاء! لاء! ماحدا شافا! ماحدا شافا!
- إزا شفتوها ؤولوا لها : أبوكي بدو يدبحك بالسكينإزا ما بتجي عَ البيت دغري!

ثم أكمل وهو يناديها حتى غاب، فاقترب أحدهم من جذع الشجرة وهو ينادي :

- أمل طلعي! راح أخوكي!
- اظهار وبان عليك الأمان!

بينما ينظر سامر مدهوشاً إلى ما يحصل، خرجت أمل / مارادونا من التجويف، توقف المطر وراحت أشعة الشمس تأتي من الأفق، فانتصب قوس قزح من أول الدنيا إلى آخرها، فاقترب لأطينة من أحدهم:

- هاه هاه هاه هاه! بتعرف؟ إزا بتفوت البنت تحت قوس قزح بتصير صبي!

فصار الأولاد يتغامزون وينظرون إلى أمل / مارادونا، نظر إليها لأطينة وقال:

- شو رأيك مارادونا؟ هاه هاه هاه هاه!
- شو رأيي بشو؟
- تفوتي تحت قوس قزح مشان تصيري صبي.

قال ذلك واقترب منها بهدوءثم لحقه باقي الأولاد ما عدا سامر الذي لا يكاد يصدق ما يراه، بينما امتلأ وجه أمل بالرعب الشديدوهي تنظر إليهم، فأخذوا يدفعونها إلى تحت قوس قزح وهي تصرخ وتقاوم وتدفعهم:

- لاء! لاء! .. أنا ما بئبل ... ما بئبل ... بدي ضلني بنت .. بعدوا عني ! ... بدي ضلني بنت .. بعدوا هيك!

وراحوا يدفعونها للدخول تحت قوس قزح وهي تمانع وتبعدهم وهم يضحكون :
- هاه هاه هاه هاه!
تراجعوا عنها لما تحولت إلى قطة شرسة وأخذت تضربهم ثم ابتعدوا.

هدأ الجميع وهم يتكلمون عن المباراة وكانت الشمس كقرص ذهبي تميل على الأفق، وقفت أمل ومرت بين الصبيان واضعة الفوتبول بمحاذاة خصرها، وقفت فحجبت الشمس، ثم التفتت إلى سامرمبتسمة:

- بكرة سامر رح يكون بفريئي.

التفتت وراحت إلى الشمس بكبرياء وبخطوات واثقة رافضة أن تتحول إلى صبي.

بروفة للموت

بروفة للموت

راح يضغط جسمه بكل أعضائه على الأرض محاولاً الالتصاق بها، حتى يزيد شعوره بالطمأنينة أكثر ويقوي ارتباطه بالأمان.

ليس الأمر غريبًا. إنه خارج من الموت. لن يصدقه أحد فيما بعد عندما يحكي لصحبته بأنه تعرف على الموت حقًّا! ذلك مؤكد، لقد خرج من البحر بعد ست ساعات من الصراع مع الأمواج.

جاء رفيقه حسام وقال باستهزاء: تتحدَّى! كان موضوع التحدي على من يستطيع الاحتمال في السباحة أكثر. وراحا يتوغلان بين الأمواج في العمق، كلٌّ يظهر قدرته أكثر لم يشأ أحدهما أن يتنازل للآخر أو يسأله إن هو تعب أم لا. توقفا لاستراحة قصيرة عند مراكب الصيادين المنشورة عند الأفق، كانوا يسبحون في الأيام الماضية حتى يصلوا إليها وحسب.

كانت آخر مرة ينظرون فيها إلى الشط.

تقدما في عرض البحر ولم يلتفتا إلى الخلف بالمرة.

بعد ساعتين من السباحة المتواصلة جاء سؤال حسام "تعبت؟" في اللحظة التي كان حيان سيسأله السؤال نفسه، إلا أنه أجاب. "هـء!" من دون أن ينظر إليه بالمرة.

التفت حسام إلى الشط ثم صرخ بفزع: العمى! ولك ضعنا. شوف. ولك شوف وين صرنا! فرد حيان من دون أن يلتفت إليه إمعانًا احتقاره: "كمل! بسرعة تعبت؟" ولكنه ألح عليه أن يلتفت.

بان شط البسيط وفي خلفيته يبرز الجبل مثل تل صغير ملقى عليه سجادة خضراء، حتى الشجيرات المعمرة السمينة التي ما استطاع أن يحيط جذعها مع أحد رفاقه، وتسلقها يوم البارحة حتى رأى آخر البحر بدت نثرة صغيرة في نسج أخضر. كان من الممكن للناظر أن يتمتع بروعة هذا المنظر لو أنه واقف على أرض صلبة.

"إزا تعبت لنرجع" قال لحسام إمعانًا في احتقاره، وفي تأكيد انتصاره.

صفعته موجة كادت تعميه!

من سحب مراكب الصيادين إلى الشط؟ اندهش في بداية الأمر، لم يكد يدرك حجم المشكلة، مد قدميه عميقا حتى يجد أرضا ما يقف عليها فما وصل لشيء، عاد للصعود فصفعته موجة أشد وأقسى، لم تكن لديه خبرة بأمواج الأعماق الغدارة، صار مع حسام أمام مواجهة من نوع مختلف، أدرك أن هذه المنافسة الغبية ربما تودي به إلى الموت، لقد سحبهما التيار إلى عرض البحر وعليهما أن يواجهاه، ويعودا بعكسه، لقد انتهت المنافسة ولا بد من التضامن الكامل حتى ينجوا.

بدأت الأمواج تعلو وتصفعهما، ثم تقذفهما صوب العمق، صار التقدم لعشرة أمتار يحتاج إلى جهود كبيرة، أما قيامهما باستراحة أو مجرد استرخاء بسيط يؤدي إلى قذفهما إلى العمق عشرات الأمتار.

مر مركب بعيد، لوحا وصرخا، لكنه لم يسمع، إنه مركب لأناس يتنزهون، ويتسمعون إلى صباح فخري، عادا للصراع مع الأمواج وصلا إلى طرقة لا بد منها بإخفاء الرؤوس تحت الماء أثناء التقدم في السباحة، فنجحا في ذلك وصار الأمل أكبر في الوصول إلى الشط، إلى أغلى مكان ممكن حيث الأرض والرمل، حيث يمكن الوقوف.

صار التقدم شيئا ممكنا صار يحس أن قدميه قد تحولتا إلى زعانف سمكة لا تتعب من السباحة. صرخ حسام! لقد تشنجت ساقه وامتد التشنج إلى كل جسمه، صار مثل خشبة مستقيمة لا تقدر أن تأتي بحركة، لمثل هذه الحالة لا بد من أرض صلبة يقف فوقها حتى يفك التشنج، غطس حيان عميقا، نظر بذعر إلى الأعماق فلم ير أي أرض، فاقترب منها وعض ساقه، فانفك التشنج، ارتاح، شكره كثيرا، بينما حيان يفكر فيما رآه تحت، وبه شيء من اليأس؛ لن يصلا ببساطة، والنجاة صعبة.

صارا يسبحان بقوة وعزيمة وصارت مشاعر اليأس والأمل بالنجاة تتوارد مع كل ضربة ومع كل خطوة ومع كل نبضة قلب، حتى أن ذاكرتها أفرغت تماما، نسيا كل ماضيهما، كأنهما لم يولدا إلا عندما أدركا هذه المشكلة العويصة، حتى مجرد التكلم الذي يساعد على النسيان والمقاومة كان صعبا جدا. ومع ذلك فقد كانا يتقدمان صوب الشط، وإن ببطء شديد.

خفت حدة الأمواج وبدأ الناس يظهرون على الشط والمراكب تقترب شيئا فشيئا، علمان أنها لا زالت في مكانها ولم يسحبها أحد إلى الشط، مع ذلك، ازداد الأمل كثيرا عندما صارا على بعد عشرين مترا منها، صارا يتكلمان ويصرخان ويشجع أحدهما الآخر، ولقد أمسكا حبال المراكب في اللحظة التي كادا يموتان فيها، كانا في غاية التعب والإنهاك، لدرجة أن مجرد التمسك بحبال المراكب يحتاج لجهد مضاعف، كانت الحبال مجرد أرض مؤقتة ليرتاحا عليها، وراحا يتكلمان عن الأكل، كان الجوع قاسيا وعنيفا، ولا يمكن أن يحتمل، اللحم المشوي، والرز والفريكة والجبن والدراقن والخبز، آه! أين الخبز؟ تمنى حيان أن يجد شقفة خبز يابسة وعفنة. استرسل حيان في الكلام في حين سكت حسام، ولم يعد يجيبه، سكت بالمرة!!

ناداه! فلم يجبه، لم يبق إلا القليل حتى يصلا. ناداه ثانية، سبح برعب إلى الجانب الآخر من المركب، مات؟!! سبح بسرعة مجنونة، فلم يجده بل وجد يده ممسكة بالحبل بتشنج وجسمه مرتخ، تحت الماء.

كمشه من شعره وهبطت عليه قوة مضاعفة وأخذ يسبح بيد واحدة، ويحاول أن يكلمه، لكن من دون جدوى، وقد قطع المسافة إلى الرمل بسرعة كبيرة. سيظل مستغربا لفترة طويلة من أين أتته هذه القوة؟!

سلم حسام لرفاقه المنتظرين عن الشط وارتمى على الرمل مثل خرقة بالية، أطرافه تراوح مثل لعبة خشبية مرتخية وخالية من أي إحساس أو قوة، وبداخله جموح للالتصاق بالرمل، كان ما زال بينه وبين الموت شعرة، أخذ يضغط على الأرض بكل أجزاءه فاقدًا الإحساس بالأشياء غير قادر على تفسير شيء، وكأنه في دنيا غير دنيا لاصقًا أذنه بالرمل يتنصت إلى الأرض ويتعرف بالأشياء وكأنه يراها للمرة الأولى، كان الشط جدارا كبيرا من الرمل، والبحر جزأه التحتاني، والأشجار جزأه الفوقاني، النوارس تصرخ بجانب البحر، واليخوت تمر من فوقه بعنجهية وتطلق زماميرها، السابحون والسابحات يتراكضون مثل مخلوقات بدائية، يتضاحكون ويتصايحون ويتشاجرون على كرة صغيرة.

"باك شي حيان؟"

"شو صار لك؟"

"ولك رد علينا!"

"نروح لنجيب لك دكتور؟"

تنصت لكلام زملائه ولم يكد يفهم شيئًا، وكأنهم مخلوقات غريبة تتكلم لغة كوكب آخر ، كان عقله واقفًا عن العمل. اقتربوا منه كي يرفعوه عن الأرض، فصرخ بذعر:

"اتركوني!"

فتركوه مثلما يريد. ثم صرخ ثانية بأعلى صوته:

"بدي آكل"

أول شعور شعر به، وكأنه لم يأكل كل عمره، أخذوا يلقمونه الطعام في فمه مباشرة من دون أن يغيروا في وضعية جسمه، يأكل وهو يراقب الشط.

وقف بعد ساعة، تمطى كقطة، تفقد كل أطرافه وتحسسها جيدًا، راقب الناس بفرح شديد، التقت عيناه بعيني حسام، ابتسم الناجيان من موت محقق في وجه بعضهما ابتسامة المنتصر.

نظر إلى الأرض!

لم يطمئن بعد! ما زال قلقًا! ما زال يشعر أن الأرض ليست من تحته! كان المكان الذي ارتمى فوقه قد حفر في الأرض على قدر جسمه تماما حفرة تزيد عن عشرة سانتي مترات، وأعطاه الرمل من الحنان ما لم تستطع أمه أن تعطيه إياه.

قرر أن يحفر له قبرًا.

في المكان نفسه ولكن أعمق من ذلك، وسع الحفرة جيدًا ثم قاسها لكي يرى إن كانت تستوعبه، حفر قليلا عند القدمين وترك جزءًا لكي يجعله

وسادة ثم نام، تمدد مثلما رأى جده وهو ميت وجرب أن يغلق عينيه حتى يختبر الموت.

لم تنفع التجربة ما زال يحس ويسمع الأشياء. طلب من أحد أفراد الشلة أن يهيل فوقه التراب، ففعل، صارت الأرض مستوية ولا يظهر إلا رأسه فقط، كان شعوره بالطمأنينة يزداد كلما زادت كمية الرمل الملقاة فوقه، وصار كل من يأتي يهيل عليه التراب من جديد ثم أتت سمر ووضعت حجرًا فوق بطنه وغصن تين عند قدميه وراحت تلقي عليه التعازي ويطلبون من الله أن يرحمه ويدخله فسيح جنانه، وراح الجميع يداعبونه فأقاموا مجلس عزاء مرتجل وانقسموا إلى فرقتين الأولى أهل الميت والآخرون غرباء يقومون بإلقاء التعازي، الرجال حملوا المسابح ونظروا إلى الأرض والنساء تتباكين.

أما هو فلا يكاد يدرك كلمة مما يقولون، لأن الشعور بالراحة راح يتزايد عبأ كل أوصاله وملأ كل خلية من جسمه، شعور لم يشعره بمثله كل عمره، بل كان يطالب بإلحاح شديد أن يهيلوا عليه كمية أكبر من الرمل، وكان الجميع يفعلون مثلما يريد حتى صار فوقه تل كبير يزيد ارتفاعه عن المتر.

كانت أعضاؤه تتثبت في مكانها وتتشبث لا تريد أن تغادر هذا المكان المستقر إطلاقًا. سوف يكتب في وصيته أن يهيلوا فوقه كميونا من هذا الرمل بعد موته، على أن يجلبوه من شط البسيط حتى يشعر براحة شبيهة.

لا! لن يخاف من الموت بعد اليوم.

غادر الجميع بعدما ملوا هذه التمثيلية الفاشلة كل إلى غايته، تنهد بعمق، واستسلم لشعور رائع.

بعد قليل، شعر بضغط وثقل الرمل على جسمه، ولم ينتبه إلى أن تنفسه كان يزداد صعوبة مع الوقت، حاول تحريك يديه وأقدامه، لم يستطع كان حجم الرمل كبيرًا وثقيلا حقًّا، صار يتنفس بمشقة كبيرة. قرر أن يطلب المساعدة من أول قادم حتى يزيح عنه هذا العبء الكبير، طال الانتظار وبدأ يشعر بالضيق والاختناق الحقيقي.

راح يصرخ لما شعر بالخطر على حياته، في بداية الأمر تبين أن هذه التجربة في غير محلها، صرخ! صرخ بكل ما يستطيع، لم يجبه أحد، فسكت، رأى الجميع يلعبون بالكرة، بينهم شريكه في التجربة حسام، المنسحب منها.

قرر من دون تراجع أن يمضي في التجربة وحده إلى آخرها، فلم يكن بيده فعل شيء آخر، ارتفعت يده من تلقاء نفسها! ارتفت من دون أدنى جهد، كذلك ارتفعت يده الثانية، ورجلاه، وراح الرمل يتصاعد مثل الدخان، تمسك بالحجر الموضوع وراء رأسه، ولكن شيئا ما كان يجذبه إلى فوق. مالت الأشجار على الأرض ميولا انسيابيا لينا ووقعت مثل جلالة ضخمة، وكأنها جدار من الورق المقوى.

رمى أحدهم الكرة إلى الأعلى، طارت إلى السماء، ولم تنزل إلى الأرض بالمرة. أفلتت يداه من الحجر، وأخذ يتصاعد ويرتفع، يحلق ويرتقي، صار يرى كل الأشياء على الشط من فوق وهي تبتعد شيئا فشيئا، رأى تل الرمل الذي سكن تحته، ظل يرتفع حتى دخل في غيمة بيضاء، صار العالم أبيض، غاب عنه المنظر الجميل، حلق أكثر فخرج من الغيمة وصار فوقها وبانت أجزاء من المشهد الجميل، مطابقة لما رآه عندما ضاع في عمق البحر، ولكنه لم يصعق هذه المرة ولم يصب بذعر، بل كان يتابع المشهد وكأنه واقف على أرض حقيقية صلبة وهو يحلق ويرتقي، يحلق ويرتقي.

سيدة في وجهها حكاية

سيدة في وجهها حكاية

قبل الفجر، هبت ريح حملت معها بردا قارسا، وصوتا غريبا مثل الهدير، ضربت الأغصان وبعثرت ثلج الحور في الهواء، وراحت تلاعب ستارة بيضاء مطرزة بعناية بشبكة معقدة من الخيوط الزرقاء، موضوعة على نافذة صغيرة مدهونة بلون سماوي، في غرفة بابها أزرق، ظل مغلقًا حتى ما بعد السابعة موعد خروج السيدة!

لذلك، لم تهدأ قطط الحي المعنية الوحيدة بل بدأت تتجمع أمام الباب مطلقة مواءها القلق والحاد، غير أنه ظل عنيدًا مغلقًا من دون مجيب.

ليس في الأمر لغز، فمنذ أكثر من سنتين، بل منذ أن سكنت هذه السيدة في هذه الغرفة، أخذت القطط تصل رويدًا رويدًا من أمكنة بعيدة وراحت تتجمع في القرب من هذا الحي المعزول والمبني عشوائيًّا في بستان قرب الشام.

سيدة تتشح السواد، قلما تضحك، تظهر في وجهها حكاية لم تحكها لأحد قط، وتفضل عشرة الحيوانات على عشرة البشر.

في كل يوم، تذهب إلى عملها عند السابعة، وتعود في الثالثة بعد الظهر حاملة أكياسًا، تفتح كيسًا وتأخذ برمي اللحوم إلى القطط التي تحوم حولها طالبة الطعام. منذ أكثر من سنتين، لم تنقطع يومًا واحدًا، بينما القطط تتزايد وتستوطن في البستان يومًا بعد يوم حتى تشكل قطيع كبير يثير الرعب في وجوه المارين.

صارت القطط ترصدها عندما تروح وعندما تعود فتمشي خلفها بأعداد كبيرة حتى تركب في الميكرو الذي يقلها إلى عملها، وعندما

ترجع، تلحقا أيضا وإن لم يكن معها شيء من اللحوم تلقي بها إليهم، حتى تدخل إلى خرفتها وتغلق الباب.

أثارت هذه الظاهرة قلق سكان الحي؛ فيمكن لهذه القطط أن تتوحش فتؤذي الأطفال، أو يمكن أن تجلب الأمراض. قرروا أن يتكلموا معها في الأمر وطلبوا منها عدة مرات أن تتوقف عن رمي اللحوم لهم.

لم يكن ردها إلا تأكيدًا بأن الإيذاء والضرر لا يمكن أن يأتي إلا من الإنسان وحده، بهذا الرد الذي كان على رأس لسانها تقطع المحادثة بعد أن تقف مودعة، وتصرف القادمين للوساطة. فقرروا أن يشتكوا للشرطة، فكانت النتيجة باطلة لأن القانون لا يعاقب من يطعم قططا شاردة.

إذن، لم تخرج السيدة في موعدها! الأطفال الذاهبين إلى مدارسهم يتراجعون إلى البيوت مستنجدين.

على الفور، خرج عدد من الرجال حتى يطردوا القطط، فلم يفلحوا، بل عادوا أكثر خوفا من أولادهم. لقد حدث ما كان متوقعا، فهذه السيدة ساحرة شريرة استطاعت أن تؤلب معشر القطط عليهم، فلملمت كل امرأة أطفالها، ثم أغلقت بابها بإحكام.

راح الرجال يتشاورون في هذه الظاهرة الشاذة، ماذا يفعلون؟ اقترح بعضهم إطلاق الرصاص عليهم، فلم تلاق هذه الفكرة قبولا لأن كل القطط لا يساوي ثمنها ثمن رصاصة واحدة، فاقترح غيره مهاجمة القطط بالعصي وقتلها، فتخوفوا من أن يكون، بين القطط حيوانات متوحشة نمس أو ما شابه، خاصة وأن الساحرة كانت تطعمهم اللحوم النيئة، فذلك يثير بهم غريزة الافتراس والقتل.

أخيرا، تقرر إحراق البستان إنها أرخص طريقة وأكثرها فائدة، فمن عادات القطط أنها تخاف من النار والحرائق.

قاموا للعمل على الفور، جلبوا مازوت وكاز وما كان متوفرامن الوقود، اجتمعوا في مكان واحد وراحوا يهيئون خطة لإحراق البستان.

انتبهت جارة السيدة إلى أنها لم تخرج إلى عملها، فغامرت بالخروج ومعها ما يكفي من اللحم لإسكات القطط وإبعادها حتى تسترق نظرة من خلال النافذة وتتأكد من وجودها، وتركت النافذة ورجعت هاربة، فأخبرت الرجال الذين كانوا يتهيأون للبدء بعملهم.

ولم يلبث أن جاء الرجال باللحوم لرميها للقطط حتى تسكت، ووقفوا ينتظرون.

أتى بعدها شيخ معه مسبحة طويلة في سيارة من مكتب دفن الموتى، مزقوا الستارة وكسروا الباب ، ثم خرجوا بالتابوت ومضت السيارة على الطريق الترابي على مهل، ومشت القطط التي لم ينقطع مواؤها الحزين الباكي في موكب التشييع.

ولما أمن السكان لابتعاد القطط الشريرة، وموت ساحرتهم، هاجموا غرفتها ونهبوها عن آخرها، لم يُبقوا بها شيئًا ذا فائدة إلا وصادروه، ثم أحرقوا الغرفة ذهبوا فرحين.

ومنذ هذه اللحظة، سترحل القطط إلى مكان آخر، ستبحث بكل ما تستطيع عن سيدة تتشح السواد، قلما تضحك، في وجهها حكاية لم تروها لأحد، وتفضل عشرة الحيوانات على عشرة البشر.

ســــــــاميا

ساميا

امتلأ الميكرو بالركاب، إلا ثلاثة مقاعد لا تزال خالية وذلك لأن وجهتها إلى الخلف، لا يرغب فيها الكثيرون، يظنون أن الميكرو يمشي إلى الوراء، وربما يؤدي بهم ذلك إلى الدوخان.

غير أن وجود بنت حلوة جدًّا ناعمة جدًّا قد يغير بعض المعايير، وربما يتزاحم الركاب على هذه المقاعد غير المرغوب بها أصلاً. خاصة أن هذه البنت تبدو شهية وتلبس فستانًا كُحليًّا لصيقًا بجسمها، يرتقي إلى ما فوق الركبتين شبرًا تقريبًا.

يصل شاب لاهثًا يبدو أنه قد رآها من بعيد ثم أسرع للفوز بهذا المقعد وربما لم تكن وجهته مطابقة وجهة هذا الميكرو. ومنذ صعوده يبدأ بمحاولة إغرائها بالنظر إليها مباشرةً، غير أنها لا تكترث له ولا تكاد توليه أدنى انتباه، وكأنه غير موجود أصلاً، يتجاوز حانقًا إلى أقصى مقعد قرب الشباك، خاصةً أنه رأى الركاب وخاف أن تكون حركته مع البنت واضحة للجميع وربما تسبب له الإحراج، يستطيع ببراعة أن يسترق نظرة إلى الفخذين، ثم يبدأ بخطة للإيقاع بها، يأخذ بمداعبة شعره الطويل مع التدقيق بين الحين والآخر في ردة فعل باقي الركاب.

لا يلبث أن يصعد رجل سمين أصلع يتعرق كثيرًا، يغطي صلعته بغرة طويلة لونها عسلي، يحمل أكياسًا، ولمفاجأته بهذا الجمال الأخاذ يجلس مقابلها، دون أن يثير أدنى صوت ولا يكاد أن يحيد بنظره عنها لحظة.

ثم يصعد أخيرًا رجل كهل أشيب مجدور كده العمر، منتصف شاربه أصفر. وبصعوده يكون على السائق أن يمضي لاكتمال الركاب.

يمضي الميكرو.

ما أن يغلق الرجل الأشيب المجدور الباب، بعد محاولتين، حتى تلتفت الحلوة الناعمة إليه ، وتسمر عينيها المتجمدتين الحالمتين في وجهه، فيمضي بعينيه إلى الشارع خارج الشباك معتقدًا أن الأمر لا يعدو أن يكون نظرة عابرةً، غير أن بياض الفخذين البضين اللذين لمحهما عند صعوده، يدعوه إلى صب عينيه بنظرة سريعة جدًّا. تحلو له اللعبة، يراقب انشغال باقي الركاب، يسرق نظرة أُخرى أطول نسبيًّا من الأولى، وتقفز الشهوة إلى وجهه، يحاول إخفاءها بكف يده، يتمتم بكلام غير مفهوم، ثم يغامر بنظرة ثالثة يمرر يديه على رجليه وكأنه يدلكهما، يتنهد، يعود إلى التمتمة ويرفع نظره إلى وجه البنت نظرة احتقار ويده على وجهه، يصطدم بهذا التحديق المتواصل والوقح في عينيه مباشرة! يملأ عينيه قلق مغاجئ، يبعد نظره عنها ويدور به على جانبيه بحيرة وكأنه يبحث عن شيء ما، يتمتم للمرة الثالثة وقد فقد كل سيطرة على نفسه، يحمر وجهه، فهي لا تزال ترسل سهامًا مباشرة من عينيها الخارقتين، يضغط على ساعده عند الساعة لفترة، يبدو أن ارتفاعًا بالضغط قد أصابه، يتلون وجهه وينقلب بين البرتقالي والأحمر والبني وكأن الحياة عادت إليه، تتسرب ضحكة عريضة من بين شاربيه الأصفرين، وترتقي كفه لتلامس أنفه وصولاً إلى ذقنه وهو بكامل الرضا ووجهه مليء بالفخر، ثم يكسر نظره ظنًّا أن الركاب قد لاحظوا شيئًا ما، فيغرس عينيه بحذائه مع محاولة كمش الحدقتين التي تغامران بين الحين والحين في النظر إلى فخذي البنت.

أما الآخران فلا يفتأان حانقين أشد الحنق يُقلِّبان النظر بازدراء واحتقار وقرف بين الحلوة الناعمة وبين الرجل الأشيب المجدور. ولم يكد الشاب يوقف محاولاته المتكررة في إغرائها والإيقاع بها، فلم تترك يده طوال الوقت تحريك شعره، ولم غادرها عيناه لحظة، حتى أصاب أخيرا باليأس. فلِمَ يحدث شيء كهذا وهو الشاب والوسيم؟! ينفخ بشدة

ويقرر أن يهجرها ويحيد عنها إلى الأبد، يسترق نظرة أخيرة إلى الفخذين، يلتفت بنَزَق، يفتح الشباك ويحاول أن يشغل نفسه عن خيبته بمراقبة حركة الشارع.

لا يكون من الحلوة الناعمة إلا أن تلتفت لتمعن النظر إلى الشاب الحردان الغافل عنها، فيستشيط وجه المجدور الأشيب غضبًا، ليعود إلى التمتمة ويستعيذ بالله، ثم يتناول مسبحته من جيبه، ويأخذ بذكر الله بصوت منخفض، وقد ارتسم عليه مباشرة صورة الشيخ التقي الورع، ويجبر نفسه على النظر من النافذة مُدعيًا بأنه غير مكترث على الإطلاق.

يقرأ الشاب آرمات الدكاكين وأرقام السيارات، ويشغل نفسه بها مُصممًا على قراره في أن يزدري الحلوة الناعمة وألا ينظر إليها على الإطلاق. ولكن لا بأس في استراق نظرة، نظرة واحدة إلى الفخذين، فلا خسارة في ذلك، وما أن تقع عيناه على الفخذين، حتى يتحركا قليلاً، وكأن صاحبتهما تحاول إغراء من ينظر إليهما، يرتقي بنظرة مُرفقة بكثير من الازدراء والاحتقار ظنًّا منه أنها لا تزال تغري ذلك الرجل الهرم، فيصطدم بعكس ذلك تمامًا، بنظرتها الجامدة الحالمة بعهر ووقاحة مفرطة، لا يلبث أن يعود الهدوء والرضا والقبول، بل عدم التصديق فيما يراه، لقد نجحت خطة الازدراء، لِمَ لَمْ تخطر على باله منذ البداية؟ يتحرك عدة حركات عشوائية، ثم يهدأ ويتنهد،ويرتاح على الكرسي، تتمدد عضلات وجهه وتنفرج تمامًا، وتحلق ابتسامة مع حركة ملاطفة أعلى الخد، وعندما لا يجد ردًّا، يلجأ إلى يده فيحك خلف أذنه ويبقى مسرور جدًّا.

كان وجه الأصلع الحانق يتحول طيلة فترة إعراض الحلوة الناعمة عنه إلى الأصفر، وها هو يزرقُّ عندما يرمق الشاب الظافر وقد صار وجهه أقرب ما يكون إلى الموت، ينظر إلى ساعته ثم إلى الطريق ثم

ينفخ، ينحني ويقلب محتويات الأكياس التي معه، وتفلت الغرة العسلية الطويلة وتلامس أعلى كرشه، يثير ارتطام أكياس النايلون صوتًا تلتفت الحلوة الناعمة مباشرة إليه، وتسمر عينيها هذه المرة على الأصلع، ثم تحرك طرف شفتها السفلى فينم ذلك عن ابتسامة، يصطدم بابتسامتها إليه، فيرفع الغرة المسترسلة بسرعة ويعود وجهه إلى الحياة والشباب ويحمر مباشرة، يعلق على وجهه ضحكة من أول وجهه إلى آخره، يحك رأسه الأملس نتيجة الإفراز المتواصل للعرق الذي أخذ يتصبب، ثم يلجأ إلى منديل يتناوله من جيبه، يمسح كامل الوجه والغرة فيظهر وجه مرتاح وكأنه بهذه الحركة قد أزال كل المشاعر السيئة.

يتحرك رجل كهل جالس بجانب الحلوة الناعمة يهيئ نفسه للنُّزول، ثم يتكلم مع الشوفور، يطلب منه التوقف عند الموقف، ينْزِل، يتناول من جيبه عصا مطوية يفردها على طولها، يتكلم الحلوة الناعمة التي لم تلتفت إليه إلى الآن:

- سامية

ترد البنت وهي تحاول أن تتجه صوب الصوت:

- نعم أبي
- وصلنا، هاتي إيدك

تقف الحلوة الناعمة وهي تلوح بيدها باحثة عن شيء تستند إليه، وتحاول تلمس الطريق، يمد أبوها يده بالعصا ويضعها في يدها، ويمسك المجدور بيدها التي اصطدمت بركبته، ويوجهها إلى النُّزول.

تمسك يد أبيها وتمشي بجانبة وهي تطرق بعصاها على حجارة الرصيف، بينما تتبخر ملامح الرجال الثلاثة وتتلاشى، أفواههم مفتوحة، وجوههم مزرقة، عيونهم جاحظة، ينظرون شاخصين إلى صوت ضربات العصا، وكأنها تطرق على جماجمهم.

أبو عادل

أبو عادل

سيحصل معي حادث وربما أموت!

هذا الإحساس الوحيد المسيطر عليَّ منذ أفقت، وهو شبيه بتنبؤات غامضة عن موت قريب لطالما أشعر بها في أيامي، ولطالما تحققت أو تحقق جزء منها، فأنا موظف، مضطر للخروج من بيتي كل يوم، واستخدام المواصلات العامة. أعد نفسي حيا بالمصادفة لأني لم أمت في واحدة منها، أو لأني محظوظ وحسب، أو لأن أمي تدعو لي باستمرار.

وقفت عند موقف الروضة أنتظر واحدا من الميكروات الذاهبة إلى البرامكة، أعرف الميكروات كلها أيضا مع السائقين، تركت الأول لأن السائق مدعوم لا يدفع رشاوى للشرطة، ويسوق الميكرو بجنون ولا يكاد يلتزم بأي نظام. وتركت الثاني لأنه يمشي مثل سلحفاة وكل زبائنه من النسوان السمان ممن يحتجن لثلاثة حتى يعينهن على الصعود ومثلهم على النُّزول.

فكرت بالعودة إلى البيت ثم تراجعت لأن موعدي مع السفارة اليوم، اليوم سيتقرر موضوع هجرتي النهائية من سوريا، لا بد من الذهاب.

انعطف صوبي ميكرو بشكل حاد ومفاجئ، حسبت أن الحادث الذي تنبأت به قد وقع، وصارت ركبي ترتجف من الفزع. أوقف أبو عادل الميكرو أمامي تماما وصار يصرخ في وجهي بصوت عالٍ:"برامكة.. برامكة.. برامكة". حاولت أن أحيد فرجع حتى صار بمحاذاتي مرة أخرى وأكمل ما بدأه من صراخ، فلم أجد نفسي إلا منساقا ومجبرا على الصعود من دون تفكير، وكأني نسيت خوفي من الموت وأفضل الانتحار. إنه خيار من يصعد في رندا، ورندا اسم ميكرو أبو عادل.

روحي رندا!

خاطب الميكرو وانطلق بسرعة كبيرة كمن ينطلق في حلبة سباق سيارات، تمسَّكت بالعارضة أمامي واستعذت بالله. قال أحد الركاب:

- على مهلك يا أخي!

التفت بالميكرو بانعطاف مجنون وأوقفه على جانب الرصيف، ثم تناول عصا غليظة من جانبه، رفعها وجعلها متأهبة للضرب، وهو ينظر إلينا بغيظ، سأل بهدوء عن المتكلم، فساد صمت، صرخ بصوت عال سائلا عن المتكلم، ولما لم يجد جوابا، ألقى خطبة مرتجلة بصوت عال مستخدما العصا على طريقة الحجاج، تكلم فيها عن قدرته الفائقة في القيادة وعن أنه أمهر شوفور في كل سوريا، وأن رالي سوريا سوف يفشل فشلا ذريعا لأنه ليس مشاركا فيه، وراح يتحدث بشفافية عن الأمان وعن حياة الراكب المؤمن عليها طالما هو برفقته، وأن هنالك عقدا مبرما خفيا بينه وبين أي زبون محتمل، فبمجرد أن يصعد إلى الميكرو، يكون عليه أن يوصله إلى وجهته سالما غانما:

- متل ما استلمتك بسلمك

تناول العصا من يده اليمنى وسلمها لليسار، ثم سلمها وأعادها إلى الأولى كمثال توضيحي على القضية المطروحة، ثم أخرج من جيبه شهادة السواقة وأبرزها بشكل واضح.

- هي، شايفين هي، هي عطتني اياها الدولة، يعني السلطة، والسلطة بتفهم والا ما بتفهم؟ لا يكون حدا في عندو اعتراض عَ السلطة؟

استعرض جميع الوجوه بنظرة حادة وشاملة باحثا عن جواب ما، ثم التفت وجلس بخشونة خلف الدركسيون وانطلق بأسرع من الأولى، ساد صمت ازرَّقت معه وجوهنا.

وضع شريط كاسيت لمغنٍّ يغني مواويل بشعة بصوت بغاية البشاعة، تأثر له أبو عادل، فتحمس وزاد من السرعة، وصار يصرخ بنشوة وإعجاب شديد، ويترك المقود ويصفق، ثم جرى إطلاق نار في الحفلة داخل الشريط رفع مسدسا معلقا على جنبه، لقمه، ثم أخرجه من الشباك وأطلق، نزلت رأسي أنا وباقي الركاب تحت المسند، وتابع الإطلاق حتى فرغت الرصاصات. رفعت رأسي وكأني ناج من موت محتوم.

- هي خمس ليرات!

صرخ وانعطف انعطافة حادة صوب الموقف، حسبت أنه رأى خمس ليرات على أرض الشارع وسينْزل حتى يلمها، فظهر أن الخمس ليرات زبون عادي، وعليه أن يفوز به قبل أن يركب مع أحد منافسيه من سائقي الميكروات. كل إنسان عنده يساوي خمس ليرات، الناس خمسات تمشي على أرجل وتستطيع الجلوس على المقاعد ولا تفتح فمها إلا عندما تتثاءب، وهي مستعدة دومًا لسماع خطابات نارية، ولديها قدرة على التحمل تفوق قدرة أي كائن آخر، ولا تعترض على أي شيء.

امتلأ الميكرو أخيرا وسوف يخرج من جرمانا، أرجو ألا يكون في المخيم عند التقاطع شرطي، فوجوده مقترن دوما بوجود ازدحام لا يطاق، فاهتمامه لا ينصب على تنظيم السير، بل على تعقيده تعقيدا قدر المستطاع وبالتالي تحصيل أكبر قدر ممكن من الرشاوى.

ظهر الازدحام الشديد، إذن هنالك شرطي من دون شك.

وقف أبو عادل بالميكرو في صف السيارات، وما لبث أن شعر بالملل فرجع إلى الخلف ثم انعطف وتقدم مجتازا صف السيارات مخالفا نظام السير، تقدم في وجه السيارات القادمة، متخلصا منها بالانعطاف إلى أقصى اليسار ثم بالعودة إلى قلب الطريق متحاشيا سيارة ضخمة تنقل على ظهرها دبابة، فاضطر للنزول في حفرة عميقة فارتفعت من مكاني وضرب رأسي بالسقف، صار عندي انتفاخ واضح أعلى جبيني جهة اليمين. وقد عبر الطريق حتى الإشارة ضمن خط سير متعرج مثل خط سير الأفعى، كنت مضطرا أنا وباقي الركاب للتشبث بالعوارض المثبتة.

وصل إلى القرب من الإشارة وصف الميكرو على أقصى اليسار، ظهر أن سبب الازدحام شجار أقحم الشرطي نفسه فيه، نزل أبو عادل تاركا الميكرو عرضة للاصطدام في أي لحظة، تقدم صوب الشجار واقترب خلسة من الشرطي المشغول بتفريق المتشاجرين وإبعادهما عن بعضهما بعضا، رفع أبو عادل يده وصفع الشرطي صفعة قوية، فارتج رأس الشرطي مثل نواس، ووقعت طاقيته المعدنية على الأرض، داخ فعلا وكاد أن يقع، فراح الأولاد المتجمعون يلعبون بالطاقية التي تشبه الفوتبول، ويركلونها بأقدامهم، بينما انسل أبو عادل وعاد إلى الميكرو من دون أن ينتبه إليه أحد، صعد إلى الميكرو وهو يقهقه، وراح يغني ويصفق ويتحدث عن انتصاره، فبدل أن يدفع للشرطي خمسا وعشرين ليرة كما هي الحال كل صباح دفع له ما يستحقه فعلا.

رجع صوب جرمانا ثم التفت إلى حارة فرعية مثل الدوامة، قد يُضيِّع في القرد ابنه، لكثرة ما فيها من حارات ضيقة ومداخل ومخارج وحفر ومطبات، وكل ذلك لم يجعل أبو عادل يخفف السرعة مثلا أو يداري ضيق الطريق وكثرة تعرجاته، بل راح يقود بسرعة فجأة يدخل إلى اليمين ثم إلى اليسار ينْزل في حفرة ويصعد على مطب، شعرت وكأني في غسالة ملابس تدور بسرعة دورات خرافية. فجأة، صعد على مطب

عال جعلني أرتفع مرة أخرى إلى السقف فصار عندي انتفاخ ثان أعلى جبيني جهة اليسار.

ذكرني ذلك برفيقي عندما أقحمني في مدينة الملاهي بلعبة السيارة المغلقة التي ترتفع وتنخفض وتميل على الجانبين، وهي مزودة بشاشة يظن الراكب أنه يقود سيارة فعلا وهي تمشي على أرض وعرة فيها الكثير من الموانع من أشجار وصخور وغيرها، لكن.. عندما يخرج اللاعب منها يشعر بأنه تلقَّى أكثر من خمسين عصا على رأسه.

خرج الميكرو من الحارة الدوامة وأنا أشعر بشعور من أكل مائة عصا على رأسه، فبالإضافة إلى النتفاخين الواضحين على الجبهة امتلأ جسمي بكدمات كثيرة، وأن المعدة والرئتين والقلب وكل أجهزة جسمي الداخلية قد غادرت أماكنها، تنهدت لأنه صار على أرض مستوية أخيرًا، فما لبث أن صعد فوق حجر ارتفاعه نصف متر وخبط على الأرض، فضرب رأسي بالسقف مرة أخرى وصار عندي انتفاخ ثالث أعلى جبيني من المنتصف.

أخذ أبو عادل المتحلق الجنوبي.

لم ينته فيلم الرعب بعد!

قاد الميكرو بسرعة عالية، كان يلاحق سيارة فيها صناديق فاكهة، توقف بحدة وانعطف صوبها وراح يلاحقها ويناور عليها حتى وصل إلى محاذاتها وفاز بحبة دراقن، فصرخ من الفرح، مسحها بكم قميصه وراح ينهشها.

غير أن فرحته لم تدم عندما تجاوزته سيارة تاترا وباص للنقل الداخلي، يبدو أنهما يتسابقان، رمى أبو عادل باقي حبة الدراقن وكشر وزمجر وحمل العصا في يده وصرخ بغضب:

- ولك أبو تاترا! وين بدك تهرب مني! والله غير إعملك فارة! روحي رندا!

وأقلع بأقصى سرعة وأطلق زمور الترين وهو يلوِّح بالعصا، ويصرخ بالشوفورين خصومه وكأنه جالس معهم، صار الميكرو يقترب من يسار التاترا، ثم غير رأيه، خفف السرعة وانعطف إلى جهة اليمين، صار خلف التاترا وباص النقل الداخلي بخمسين مترا تقريبا، ورفع ساعد مغير السرعة إلى الأقصى وضرب على الدركسيون بيديه وقال:

- روحي رنداااا!

وانطلق بأقصى سرعة ممكنة، مطلقا زمور الترين بشكل متواصل، وصل إلى مؤخرة التاترا وباص النقل الداخلي، فزاد من السرعة ودخل بينهما وبدأ رالي سوريا الحقيقي، كانت موتورات التاترا والباص تطلق أصوات خوار وجعير عالية مرعبة، وأبو عادل يدير رأسه مثل أبو علي الحردون بينهما وكلما زاد من سرعته زادوا ثم لما يئسوا من تجاوزه صاروا يقتربون من الميكرو شيئا فشيئا.

ونحن، وجوهنا مزرقة حتى الموت، لا ندري ما هو مصيرنا الذي يفصلنا عنه أقل من ثانية، واقعين بين قيادة مجنونة وشاحنة ضخمة وباص كوحشين يريدان أن يسحقانا.

أم الفستان الأحمر

أم الفستان الأحمر

اتجهتُ إلى موقف الباص أمام مشفى المجتهد لانتظر مجيء الميكرو، وذلك ليقلّني إلى بيتي بعد انتهاء يوم عمل شاق، كانت شمس تموز تلعلع في وسط السماء، أمّا السيارات من كُلّ الحجوم، تَمُرُّ نافثة الدخان معكرةً الجو. وقفتُ أراقِبُ فارغَ الصبر والعرق يتدفق من جسمي آخرَ الشارع الذي سيظهرُ منه الميكرو، إن شاء الله.

وكانت ترتسم على وجهي تكشيرة، تجعل من وجهي بشعا جدا، وماذا يُنتظر ممن عمل لثماني ساعات؟!، لم يكن في مخيلتي إلا غرفتي القَذِرةُ المملة، وفراشيَ القذرُ الذي سيسمحُ لي بقليل من الراحة، كنت أتخيل كيف أني متمددٌ فوقه مستريح.

طال الانتظار، والميكرو لم يأتِ، بحيث أن المنتظرين قد شعروا معي بالضيق، بل إنهم مثلي قد أخذوا ينفخون بشدة.

ارتفع رأسي!، أجل ارتفع!، وكأن شيئا أجبرَ عظامِ الرقبة على التحرك صوبَ الأعلى، فانتعش وجهي، بل أصابته حالةٌ من الذهول، عندما رأيت امرأةً تلبِسُ فستانا أحمرَ وقد انفردَ لدرجةِ أنه أظهرَ اللحمَ الأبيضَ بجلاء، رأيتها تغادرُ أعلى شقةٍ من البناءِ المقابل، حيث أخذتْ تتهادى على الدرج، وأنا أتابِعُها بإثارةٍ جعلت مزاجيَ معتدلاً فعلاً، ثم تنعطف وتغيب على الدرج المقابل، فأنصرفُ كليًّا لمراقبةِ ظهورِها الجديد، وهكذا على الدرجِ الثاني فالثالث، وهي لا تكادُ ترحمُني بظهورِها حتى تغيبَ في الدرج المقابل، لِتَجعَلَني أترقبُ بشوقٍ حارٍّ، وهكذا. وعيوني جاحظةٌ، وفمي مفتوحٌ، وقد أدركتُ لعابيَ الذي كاد يسيلُ في اللحظةِ الأخيرةِ، فرشفته ثم بلعته.

نسيت الميكرو، وقررت إن أتى الميكرو تأجيل ذهابي إلى بيتي طالما أني أكحل عيني وأغذي مخيلتي بمشهد امرأة جميلة تصر في كل ما تفعله على أن يرى جمالها كل من في الشارع.

وصِرْتُ أتمنى أن تظهرَ مقابلي أخيراً، ولا سيما أنها تجتازُ آخر درج، كان الجوُّ يتحول شيئًا فشيئًا إلى ألطف، حتى أن الواقفين بجانبي، أخذوا ينعمون النظر في هذه المرأة التي تنـزل أمامهم بذهول مفرط.

ظهرتْ، أول ما ظهرت، ساقُها البيضاء، واندفع خلفَه باقي الفستان الأحمر اقتحمت المدخل، وكانت السيارات المارة تحجب عني الرؤية، فأضطر لـمطِّ رقبتـتي لكي لا يضيع مني أيُّ مشهد أو تفصيلة أو حركة، اخترقت المدخلَ، ومشتْ باتجاهِ الرصيف، وأنا أراقبُها بعناية فائقة، حتى توقفت عند حافته منتظرة.

رآها سائق تكسي، الرصيفُ العالي يقف عائقًا يجعل مروره إلى المرأة أمرًا صعبًا للغاية، ولم يكن من إمكانية في أن يتجاوز صوبها إلا بأن يصعد فوق الرصيف المرتفع، ولكنه لم يستطع الاحتمال، فغامر وأدار المقود صوبها بنـزق شديد، فدخل بالرصيف العالي، بحيث أنه أتلف الجزء الأمامي من سيارته، لتصطدم به سيارةٌ قادمة من الخلف، لعدم انتباه سائقها أيضًا، وينحرف ميكرو كان قادمًا من الخلف عن الحادث الذي جرى أمامه، وينقلب على الرصيف.

كل ذلك بلمح البصر، يا إلهي! وقد وقع باص مليءٌ بالركاب بالمواجهة مع الكارثة، ولم يتوفرِ انتباهٌ كافٍ عند السائقِ ليتجنَّبَه إلا بانحرافِه بكليتِه يائساً صوبَ الموقفِ الذي نقفُ به، فأُصِبْتُ مع الواقفين بالهلع الشديد وحمدنا الله، لأنه استدرك وانعطفَ مغيراً اتجاهَه عنا، ولكنْ لم ينفعنا حمدنا لله ولم يأتِ الأمرُ على مزاجنا، فاختل توازنُ الباص وانقلبَ على الموقف حتى هرسنا جميعنا.

وليس ذلك فقط، بل إن الانتباه قد غادر سائقي السيارات القادمة من الخلف أيضاً، حتى أنهم أخذوا يصطدمون بالحادث المروع، وكأن أم الفستان الأحمر تلهِمُهم بالقيام بعملية إنتحارية.

انهرس جسمي هرسًا، صار مثل العجينة، وتدفق دمي حتى آخر قطرة، بل إن دماغي سال على أرض الشارع مختلطًا بلحمي، فانتهزتْ عيوني فرصةَ انهما الوحيدتان اللتان بقيتا سالمتين، وركضَتا بعد أن تعثرتا بأنفي، كان صوت سيارة الإسعاف يلعلع، وأخذت عيوني تتجاوز الجثث المهروسة والأيادي والأقدام لِتراقبِ ما حلَّ بأم الفستان الأحمر التي وصلت إليها الآن سيارة الإسعاف، وقفت أمامها ثم فتح السائق الباب وراح يدعوها بشدة.

كان الجو، في هذه الأثناء، قد أخذ جرعة كافية من الانعاش حقا، فصار مزهرًا ربيعيًّا ولطيفًا جدًّا.

اقتربت أمُّ الفستان الأحمر من السيارة وابتسامة عريضة مرتسمة على وجهها، بينما البودرة تتطاير من جسدها الأبيض، ثم ركبت بجانب السائق حيث ظهر من تحت باروكة الشعر الأشقر خصلة شعر بيضاء، وأطبقت فمها بسرعة لئلا تقع تركيبة الأسنان الصناعية.

أخذت سيارةُ الإسعاف تبتعدُ بأمِّ الفستانِ الأحمرِ هاربةً من الضجيجِ، آخذةً معها جرعة الإنعاشِ كلها، فعادَ الجوُّ في لحظةٍ واحدةٍ إلى وضعِه السابقِ من الحرِّ والاختناق، وارتسمتْ على عيونــيَ التي طُرِحَتْ أرضًا تكشيرةٌ، نسيتُ معها ما أصابَ الجوَّ من إنعاش.

دف الشوك

دف الشوك

خرج مع خطيبته من بيت خالها، عبرا الحواري الضيقة. ضمته من كوعه بحنان. ها هو أيلول قد أطفأ الصيف، يبدو أن السماء قد أمطرت قليلاً، ورائحة التراب المجنونة تبعث على القشعريرة، إنها رائحة أيلول.

كلُّ شيء يغري على المشي والتنَزُّه. تسربا إلى شارع اليرموك؛ الدكاكين مغلقة، ولم يتبق في هذا الشارع الطويل العريض إلا بعض المطاعم وباعة الشاورما يتراقصون أمام أسياخ اللحمة الضخمة وقد توقف حولهم عدد من الزبائن يراقبون بصمت، أما باقي الشارع فخالٍ تمامًا من المارة والناس، خال تماما! الأضواء الكثيفة تجعل من هذا الليل نهارا آخر.

لكن أين الناس؟! وماذا يفعلون خلف الجدران في هذا الجو الرائع؟

ضمته من كوعه بقوة، فتوقف.

- خلينا نمشي. قالت
- تأخرنا. قال بلهجة حازمة غيرت موقفه الأول.

لم تجب بحرف، بل إنها انصاعت لأوامره تماما، ولن تخالفه في كلمة يقولها، خاصة وأن سيارة فخمة توقفت للحظات، ثم ابتعدت بسرعة، بدأ الدم يدب في صدره، أخيرا وصلت سيارة تاكسي، فتح الباب، جعلها تصعد أمامه وصعد مباشرة بجانبها متخذا وضعية المسطر الحامي في كل حركاته:

- خدنا عَ جرمانا.

قال للشوفور بسرعة، محاولا أن يهرب من إحساس ما.

مشت السيارة. هناك عدة طرق يمكن أن تصل بين مخيم اليرموك وجرمانا، أخذ يراقب كل شيء يمكن أن يصدر عن الشوفور، مع محاولة السيطرة على نفسه، فمن غير اللائق أن يظهر أمر خوفه وقلقه أمام خطيبته، بذل جهدا مضاعفا في تلطيف الجو وإلقاء النكات، وقد أفلح مرات في أن يجعها تضحك وأن يرتفع حجم صوتها بشعور عارم من الأمان، ولكنها تمادت وتوسدت كتفه مما لفت انتباه الشوفور، هذه الحركة التي تفعلها بمناسبة وبغير مناسبة، وهو بالمقابل لم يمانعها مرة، بل إنه يرتاح لخضوعها له، ويحاول دومًا أن يظل هذا الخضوع موجودا، أما وقد شعر برعب من خطر محتمل، فأن تتوسد كتفه أمر غير مرغوب فيه حتمًا، تجمد كخشبة، انحرف قليلا واعتدل، فهمت، ثم تراجعت وظلت ساكتة.

انحرفت السيارة، تريد أن تأخذ طريق دف الشوك، اعترض مباشرة وصرخ:

- ليش من هون؟

أوقف الشوفور السيارة ونظر إليه مستغربا:

- الطريق التاني عم يشتغلوا فيه البلدية، بتعرف طريق غيرو؟

نفخ نفخة طويلة وتقبل عذره، مد يده إلى خصره وأرجعها خائبة؛ لم يجد السكين. تناول محفظة خطيبته بنَزَق وراح يبحث بداخلها:

- شو بدك؟

لم يجب بكلمة، بل تابع البحث بين موجودات المحفظة الكثيرة حتى وجد مشرط خياطة، تناوله وحضنه بكفه جيدا، فتحه، فأصدر المشرط صوتًا مسموعًا.

مضت السيارة في طريقها، وكانت الأضواء المتناثرة على الطريق المعتم تباغت حبات العرق التي نبتت فجأة وتضيء وجهه اليقظ المترقب بشدة كل شيء، أبانت رؤوس أنامله التي ترغمه الشارب بشده صوب الأسنان لتتولى قضم نهاياته.

أخذت أضواء حي القصب تتراءى لعدنان الذي تحفَّز تماما، فهناك تسكن أم عماد العرصة:

- كل شي مضمون، لا تخاف!

كان قد وعد بليلة رائعة مع بنت حلوة بمائة ليرة فقط:

- ميت ليرة؟ وليش لأ؟

مائة ليرة فقط ويخمد هذه الرغبة الشيطانية التي تجتاحه مثل عاصفة كل ليلة. مائة ليرة ويسكتها. كان ذلك منذ عشر سنين تقريبًا، ولا يكاد يعرف امرأة.

ظل يفكر بالبنت والمائة ليرة حتى حل الليل، وصلا، دخل وراء رفيقه المجرب كالأطرش في الزفة. كانت أم عماد جالسة على الكنباية العريضة محصورة حصرا فيها لأنها سمينة جدا وتلبس الكثير من الذهب، واثنتان من البنات جالستان في الكنباية العريضة وأخريات يدخلن ويخرجن من الأبواب الكثيرة. كان الدفع قبل الدخول طبعًا، وقد خصصت له الأوضة اليسارية:

- وعم تتشرط يا بعد إمك؟

وأخذت تضحك أم عماد العرصة وأخذت البنات تقلدنها وتضحكن لضحكها، نط الدم إلى رأسه، نفخ ثم بلع ريقه، واحتمل السخرية. قالت وهي تخاطب إحداهن، فبلع ريقه وهو يرمق رجلين ضخمين:

- دبريه وزتيه برة ... مرة وحدة ... وحدة وبس تعا لهون

وفتشته جيدًا وانتزعت منه الموس. وقبل أن يعترض أخذته لبنى من يده ودخلت به.

ولم يجر الأمر مثل العادة وقفا هو وهي، كان مذهولاً جدًّا وأخذت تساعده في إزالة ثيابه:

- شو باك؟

صدم بالسؤال وهو لا يزال يفكر بأم عماد.

- شو اسمك؟

لم تجر الأمور كما تجري في العادة، وقفا متجمدين يتبادلان نظرات مكسورة، تقدم منها وقلبه يدق بسرعة، تسللت يده بخجل إلى خدها التفاحي، وارتقت عيناها بجمود وعلقتهما بعينيه، كانت تلبس لباسا شفافًا أربكه، مدَّ يده إلى الخيط المسترسل فوق الكتف الطري، فسقط من تلقاء نفسه ليطل نهد مجرب ذو حلمة بنية، غب منه، فسقطت فوق السرير مطلقة تأوها، وكأنها تدعوه ليرتمي فوقها، وملابسه تفلت منه بأسرع من البرق.

ولقد نام فيما بعد مع نساء كثيرات، ولكن للبنى طعمة خاصة، فهي الأولى والأخيرة على الإطلاق.

تقدمت السيارة باتجاه حي القصب، أخذت تخترق أول البيوت المنثورة، ضم المشرط بقوة أكثر، والعرق يتصبب منه بغزارة، التفت إلى خطيبته ورسم بكثير من الجهد ابتسامة فردت عليها بابتسامة سريعة ورمت بحيرة نظراتها هنا وهناك.

ولم تكد السيارة تصل إلى محاذاة بيت أم عماد، حتى صرخ الشوفور:

- العمى!

صرخ وضرب الدركسيون بيديه بعنف وهو يدقق النظر إلى اللوحة أمامه، ثم أطلقت السيارة صفيرًا مزعجًا, فانحرفت السيارة إلى يمين الطريق وتوقفت من تلقاء نفسها، فانقضَّ عدنان عليه من الخلف وأمسك برقبته ووضع شفرة المشرط على حنجرته مباشرة:

- ليش وقفت ولا؟!
- ولك شو صار لك؟!!
- بدك تمشِّي السيارة غصبًا عنك!

لقد انتهى خزان الوقود، أخذ الشوفور يشتم ويسب الشوفور الذي كان يعمل على السيارة قبله كيف أنه لم يعبئ خزان البانزين، فتراخى عن رقبته لأنه صدَّقه، وكان رجلاً مسكينا أخذ يتعهد بأن يبحث له عن سيارة وعلى نفقته، ولكنه عفا عنه، ثم التفت إلى خطيبته وخاطبها آمرا:

- نزلي!

وقفا على جانب الطريق ولم يستطع نسيم أيلول العليل أن يخفف من حدته وتوتره.

- ارجعي عَ الحيط!

وقف أمام الرصيف وخطيبته خلفه، ينتظر سيارة تقله وخطيبته، كان بيت أم عماد قريبًا جدًّا وهو يكاد يراه، فظلَّ متحفِّزًا يراقب كل حركة وكل صوت وكل همسة.

تمادت لبنى بعنجهية ثديها ولم يستطع عدنان أن يتحكم جيدا، القى القبض أخيرا على ساقيها ورفعهما وأرسل قضيبه في الفرج الذي كان يغلي، فتصاعدت أنات تلتها صرخة أحدثت صمتًا في جدران الأوضة.

سقط جسمه بجانب جسمها وظلا ساكنين.

أخيرًا، توقف وقبلها في عينها، ثم جلسا مستسلمين لعريهما وقد أخذ يكتشف جسمها لأول مرة:

- شو باك؟
- ما بني شي!

لقد قرر ولن يتراجع سوف يأخذها معه.

أخذت تبكي وهي تتوسل إليه وتلبسه ملابسه عنوة بأن يخرج وألا يعود أبدًا، صارت تحذره من القتل، ولكنه رفض وأمرها بالسكوت، فقد قرر ولن يتراجع.

أخذ الطرق على الباب يتعالى، ثم اقتحم أربعة رجال كالدبب الأوضة أشبعوه ضربًا ثم ألقوا به في الشارع.

سلم خطيبته لبيت أهلها سالمة من أي أذى، لم يمسسها سوء ولم يخدشها شيء، تنهد بشدة بعدما تنفس هواء أيلول وهو يتجه إلى بيته.

دخل إلى بيت أهله ألقى السلام على أبيه وأمه الساهرين في أرض الدار واستمر تحت أنظارهما إلى أوضته، كسر الصندوق، بعثر أشياءه، ثم حمل الموس وثبته على خصره الأيمن، والمسدس على خصره الأيسر، لن يستطيع أن يفي بالوعد الذي قطعه لأبيه في أن يتزوج من خطيبته ويترك الموس، بل إنه حلف يمينا بألا يعود إلى البيت وألا يترك الموس والمسدس أبدًا.

انتصف الليل، وحده واقف في نهار الشارع المخادع والأمان الكاذب يتنشق هواء أيلول العليل ويدخن بشراهة، يشير إلى سيارة تاكسي تأتي، يركب وهو يقول للشوفور:

- عَ دف الشوك

على نار هادئة

على نار هادئة

فتح مروان قائمة الأشياء اللازمة للعيد وهو ذاهب لقبض أجور ستة أشهر متراكمة في ذمة الحكومة، ثم أغلقها مباشرة.

لقد عملت زوجته في هذه القائمة أكثر من أسبوع، تحذف وتضيف، تحذف وتضيف، تحذف وتضيف، تحذف وتحذف وتحذف... ومع ذلك، فقد ظلت طويلة مرعبة، ربما لن تكفيها أجور الستة أشهر، ولا حتى أجور سنة بكاملها. ولذلك فقد حاول أن ينساها أو يتناساها ولكن زوجته كانت له بالمرصاد.

وصل إلى الكوريدور الضيق في مديرية الكهرباء في الساعة الثامنة، لم يلحق أن يصل إلى ذلك الشباك اللعين رغم أنه خرج منذ الصباح الباكر ليكون أول الواصلين، فقد وصل قبله ثلاثون، أربعون واحدا من زملائه ووقفوا أمام الشباك متمسكين بقضبانه الحديدية وكأن خلفهم واديا سحيقا ربما يقعون إن هم أفلتوا تلك القضبان، راحوا يحدقون إلى الشباك ببأس ووجوم وكأنهم يحاولون حل مسألة رياضيات عويصة.

هو يعرف والجميع يعرف أن المحاسب صاحب الوجه النحاسي اللئيم، لا يجيء على عادة الموظفين عند الثامنة، بل إلى ما بعد العاشرة، وربما لن يأتي أبدًا هذا اليوم، وليس عندهم من يقين أن هذه الحكومة النصابة ستفي بوعودها أخيرًا، ولو لمرة، وتسدد ديونها لفقراء مثلهم، على الرغم من ذلك فقد أتوا مبكرين بما فيه الكفاية لأنهم لا يملكون أي خيار آخر.

راح الناس يتدفقون إلى الكوريدور.

كان يخشى أكثر ما يخشى من ورقة وحيدة ملعونة يلصقونها كل مرة، مكتوب عليها "تأجل قبض العمال المياومين"، بل كان مرعوبا من

شيء كهذا، لا يستطيع أن يتصور شيئا كهذا، أن يتصور بأنه لن يقبض نقوده، كفى! كفى! لقد مضى من ثمانية أشهر على طرده من عمله كعامل مياوم، هو وكثيرين غيره، طردًا تعسفيا لا يعلم سببه حتى الآن. ما هذه الحكومة؟! على الرغم من أن أجورهم أرخص أجور في العالم، فإنهم لا يدفعونها!! يجب أن يدفعوا ديونهم للناس، للفقراء، الويل لهم إن تأجل الدفع كما عي العادة! لا بد أن يدفعوا وإلا ستحل بهم كارثة، سيحرض زملاءه على القيام بمظاهرة سيصرخون ويشتمون ويكسرون كل شيء فهم لا يملكون شيئا يخسرونه. لعدة أيام لم يغادر مخيلته خبر المظاهرة الذي رآه في تلفزيون جيرانه، كان العمال يطالبون بزيادة الأجور وكان العمل المتظاهرون يرشقون رئيس وزارتهم بالبيض والبندورة وهو يدخل إلى البرلمان.

لم لا يفعلون ذلك وهم لديهم الحق كل الحق.

العيد يوم الغد. كيف سيمضي هذا العيد؟! لم يعد العيد عيد الفرح، إنه عيد الهم والغم له ولكل الفقراء، منذ أربعة أعيد لم يستطع أن يشتري لأولاده ولو ثوبا جديدا.

صار تدفق الناس المتواصل يدفع به صوب الشباك فتكاثف الهواء، وتركزت رائحة العرق وقل الأوكسيجين، فراح يحرك الهواء أمام منخاره ببطاقة الشخصية المهيأة في يده منذ أن خرج من بيته، وكأنه يحسب بأنه سيعطيها للمحاسب اللئيم منذ وصوله طلب من الواقفين قرب الشباك أن يفتحوا الشباك أن يفتحوه فلم يعد الوضع مطاقا، تصاعدت الأصوات الصارخة المطالبة بفتح الشبابيك:

- افتحوا الشبابيك!

- افتحوا الشبابيك!

حتى اضطر الواقفون قرب الشبابيك إلى الصراخ:

- الشبابيك مقفولة، مقفولة، كلها مقفولة!

صار المكان حارًّا والرائحة النتنة تبعث على الغثيان، صار مثل طنجرة موضوع فيها معكرونة ومتروكة على نار هادئة.

راح مروان ينفخ، كل نفخة تطبخ طبخة، حتى لم يعد قادرا على التنفس.

صار الشجار محتملا في أي لحظة، والوضع مهيئا لمثل ذلك، لا بد من حديث ودي مع أقرب الواقفين، وما أكثرهم، إنهم لصيقون، لصيقون وأقرب من المناخير، لا بد من شيء من اللباقة، لا بد من إشاعة جو من التسامح قبل أن يبتلي بشجار ما، حتى يسهل هذا هذا الانتظار الصعب، صار يحاور جاره، يواسي الواحد الآخر ويثرثران في أمور تافهة.

وانتقلت عدوى الحوار إلى الباقين حتى اشتعل كل المكان بأحاديث وفوضى، أحرقت الصمت وزادت من حرارة المكان واختناقه. بعد أقل من دقيقتين، توقف مروان وجاره عن الكلام لانهيار أدنى قدرة عندهما على الكلام، وما لبثت أن انطفأت فوضى الحوار من جديد وعاد التنفيخ أكثر مما كان.

ساد لغط قريب من شباك المحاسب، صارت الأصوات تطلب فتح طريق، لقد أغمي على أحدهم، صارت الكتلة البشرية تموج وتتحرك وكأن ملعقة ضخمة وهمية تحركها من الأعلى كما تحرك المعكرونة في الطنجرة، صارت الكتلة تموج وتتنافر وتتراص ويتغير وضع الكائنات داخلها وأماكنهم، وصاروا يصرخون عند الشباك لأن المغمى عليه متشبث بالقضبان ولا يرد أن يتركهما حتى بعد إغمائه، حتى أن أحدهم

طالب بإحضار كماشة أو بينسة، ولكنهم أخيرا استطاعوا بعد جهد جهيد أن يفكوا يديه ويخرجوه، كان الله في عونه.

عادت كومة المعكرونة إلى الامتلاء والاختناق من جديد، غير أنها صارت متجانسة أكثر، وحمل هذا التحريك العشوائي امرأة استقرت أمام مروان، سال مكياجها بقرف على وجهها، وصار يبذل مزيدا من الجهد حتى لا يلمسها، حاول بكل استطاعته، تنبه إلى أن هناك شيء من الدفع من الواقفين خلفه فنبههم مرتين ألا يدفعوه فأمامه سيدة، نبههم بعنف ولكن من دون جدوى، وصار عليه أن يبذل جهدا مضاعفا حتى يستطيع الثبات في مكانه من دون أن يلمسها.

لم يطل الوقت كثيرا حتى تصاعد من جديد لغط عند الشباك، ماذا جرى أيضا؟ لا يوجد قبض هذا اليوم! أجلوه؟! تعالت الفوضى ولم يستطع أن يعرف ما الأمر، تصاعد الصراخ وأصوات عالية، نعم! لقد أجلوا القبض، تحركت كتلة الكائنات فجأة بصورة فوضوية عشوائية – شاطت الطبخة وفاحت رائحة نتنة- تدافعت الكائنات في كل الاتجاهات، فارتطم بالسيدة أمامه، صرخت مستنكرة:

-يا ابن الكلب!

صفعته على وجهه بقوة، ثم ألحقت الصفعة بعدة صفعات فما لبثت الكتلة أن تباعدت تلقائيا فاسحة ميدانا صغيرا للمعركة بين السيدة التي تثأر لشرفها من مروان، راحت تشتمه وتضربه بمحفظتها ويديها وقدميها وهي في أوج غضبها على شرفها المهدور، تصاعدت أصوات من كل صوب:

- بعصها قليل الحيا!
- بعصها!
- بعصها.

صار بعضهم يصفق فرحا، وراح ميدان المعركة يتسع ويكبر ومروان يتراجع أمامها رافعا يديه فوق رأسه متحاشيا الأذى قدر ما يستطيع.

كان لا بد لباقي الرجال أصحاب الكرامة والشرف والنخوة، -وقد تبين أنهم معظمهم بهذه الصفات وأكثر من ذلك بكثير- كان لا بد لهم من أن يعينوا السيدة المبعوصة المهانة على الثأر لكرامتها، كان لا بد من إعادة شرفها إليها، ولو بأقل الإيمان، بتقريع أو صفعة على الوجه أو لكمة على المعدة أو رفسة قوية على الخصيتين أو الرأس، فالشرف غال ولا بد من الثأر لإرجاعه، في ذلك حسنة عند الله، وفيها الأجر إن شاء الله.

لم يطل الأمر بمروان حتى وقع على الأرض، مليئا بالكدمات، محاطا بآلامه والرفسات ما زالت تأتيه من كل صوب.

أخيرًا، تلاشت الأقدام من أمام عيني مروان الحشرة كما قالت له السيدة المبعوصة، صار الكوريدور فارغا تماما من الكائنات، بل أفرغ كما تفرغ طنجرة معكرونة فاسدة نتنة شاطت، وظل بين آلامه ينظر إلى شباك القبض ينظر إلى الورقة المكتوب عليها "تأجل قبض العمال المياومين".

قرب الجسر، وسط الشارع

قرب الجسر، وسط الشارع

بعد غفوة لا تتجاوز ثانيتين وقف مذعورًا وراح يبحث بعيونه في كل الاتجاهات، نادى شوفور الميكرو حتى يتوقف عند الموقف، ونزل بسرعة.

لم ينْزِل بسرعة قبل الموقف الذي ينْزِل فيه بموقفين بسبب اشمئزاز الركاب من رائحة الزيت التي تفوح منه نتيجة عمله في مطعم فلافل، وليس هروبا من المرور من أمام الدكنجية، أبو رشاد وأبو نظمي، أكثر الدكنجية إلحاحًا في طلب ديونهم وأكثرهم سهرًا ينتظرونه حتى إلى ما بعد موعد وصوله هذا بساعة وأكثر، مع أن هذه المشكلة جعلته يسهو وهو يعمل فوق مقلاة الفلافل ونسي انتشال الأقراص وكاد يحرق يده، كان مهموما يفكر بالطريق الذي عليه أن يسلكه متجنبًا كل دكنجي محتمل، ولقد قدم له المعلم عدة ملاحظات قاسية، ربما يطرده في القريب العاجل.

لم ينْزِل من أجل كل ذلك.

عندما يفكر بكل هذه المشاكل يصل إلى مرحلة يكاد ينفجر، فليست عودته إلى البيت في الساعة الثانية عشرة ليلا بعد ثماني عشرة ساعة من العمل المتواصل هي المشكلة الوحيدة، فذهابه إلى عمله في الصباح مشكلة أيضًا، خاصة أن طريقه يطول يومًا بعد يوم تحت ضغط الديَّانة، ويضطر للخروج والدخول إلى بيته من النافذة العالية المطلة على بستان مليء بكتيبة من الكلاب الشرسة، يضطر للركض خوفًا من أن تعضه، وتكون زوجته قد وضعت له سلما، ثم ينهار بعدها عند أقرب نقطة أسير لهاث وسعال لا يتوقفان بسهولة.

لم يخطر على باله كل ذلك!

ما خطرت على باله كل ديونه قريبة كانت أم بعيدة. بل قفز من الميكرو بحيوية غريبة ثم مشى مهرولا بنشاط لم يظهر عليه منذ زمن بعيد بعيد، نتيجة منام قلب كل كيانه، فصدقه ولا يملك على كل حال أن يكذبه.

رأى في غفوته القصيرة أن سيارة بيجو ستيشن تمر على طريق المطار، يقع منها شنتة كبيرة فيها خمسمائة ألف ليرة، ومسدس كاتم للصوت ونظارة شمسية، قرب الجسر، وسط الشارع ولا ينتبه إليها أحد.

ما هذا المبلغ الضخم! خمسمائة ألف ليرة دفعة واحدة! رآهم بعينيه اللتين سيأكلهما الدود! في كل عمره، في كل عمره لم ير أو يعد أكثر من عشرين ألفا.

يتوجب عليه أن يسرع. صار قلبه ينبض بشدة عندما خطر على باله أن أحدًا مر بالقرب الشنتة، رآها فأخذها وفر بها.

راح يركض.

سيدخل هذه المرة من الباب مثل كل الناس، كل يوم بعد أن ينتهي من العمل في المطعم سينزل عند أقرب موقف من بيته، لماذا المرور من طريق الكلاب؟ بل لماذا.. لماذا العمل المسائي أصلا؟ رائحة الزيت التي تعبئه من رأسه إلى قدميه بحاجة إلى حمام متواصل شهرا كاملا! وهل سيركب ميكرو بعد اليوم؟ سيجيء بتكسي إلى أمام الباب، سوف يترك العمل في المطعم، ويكتفي بعمله الوظيفي، سينام بعد غداء دسم ساعتين كاملتين، سيأخذ زوجته وأولاده كل جمعة إلى الربوة، سيذهب إلى السينما والقهوة ليلهو ويمضي الوقت. خمسمائة ألف تكفي وتزيد،

سوف ينتقم من أبو نظمي البغل الذي يموت على القرش، سيحمل رزمة سميكة من المال ويدخل إلى دكانه، ثم سيريه إياها، لعل جلطة دماغية تقتله بدقيقة، عندها يخلص كل صباح من وجهه المنفوخ وعينيه الخارجتين من وجهه كضفدع، سوف يرتاح من صوته المحفور في دماغه عندما سأله عن قائمة الحساب، فراح الملعون يسردها بصوته البغَّالي: خبز، خبز، خبز خبز خبز، وظل يعيد الكلمة نفسها وكأنه يشمت منه، جعله ذلك يدرك بالدليل القاطع أن أولاده الستة ومعهم زوجته لا يأكلون إلا الخبز، لم ينم ذلك اليوم من التفكير في حل وقد داهمه الصباح كثور. غدًا سيشتري طنًا من الرز وخمسين كيسا كبيرا من السكر وعشر تنكات كاملة من الجبنة، سيشتري الألعاب والزمامير لأولاده، والملابس والذهب لزوجته، سيعوضهم غدًا، في يوم الغد تحديدًا.

يجب أولا وقبل أي شيء أن يلحق بالشنتة قبل أن يأخذها أحد، إنه يكاد يراها، لونها أسود من الجلد السميك مربوطة بإحكام، يكاد يعين بالضبط أين وقعت بالضبط، هناك، قرب الجسر، وسط الشارع، ربما تكون السيارات قد داستها. يجب أن يحث الخطا أكثر، إنه لعلى يقين عظيم من أنها تنتظره، سيتخفى بين أشجار السرو ويراقب ثم سيركض ويأخذها قبل أن يراه أحد.

ولكن إن سئل من أين لك هذا، فبماذا يجيب؟ يجب أن يظل الأمر سرًّا، لن يخبر حتى زوجته، سيذهب كعادته بعد أن يتجاوز كتيبة الكلاب أولاد الكلاب، اليوم فقط حتى لا يراه أبو نظمي حاملا الشنتة، ثم سيصعد فوق السلم، ايه، لعل وعسى أن تكون زوجته الثرثارة في سابع نومة في هذا الوقت، سينزل بالشنتة ويذهب إلى المطبخ ويضعها في السقيفة، سيعد كل النقود ليرة ليرة ويتلذذ برؤيتها، لن يقبل بأقل من خمسمائة ألف، سيتخلى عن المسدس كاتم الصوت والنظارة الشمسية، لقد رتب حياته وحياة عائلته على أساس ذلك، ثم سيخبئها في قعر الجرة

القديمة حتى لا يصلها لا الجرذان ولا الفئران أو الصراصير، سوف يتناول منها ألفا وراء ألف إلى ما شاء الله.

كل شيء في مكانه مثلما رآه في المنام! طريق المطار مضاء وكأنه نهار، السيارات تمر كالبرق لا يكاد يراها لسرعتها، ولأنه على يقين عظيم من أنه سيجد الشنتة في مكانها فإنه لا ينظر صوبها مطلقًا، يراقب الشارع من خلف شجرة السرو إن كان فيه بعض الفضوليين، لا أحد والحمد لله، يمشي بهدوء إلى مكان شنتته، يتحاشى السيارات المسرعة، ويصل بعد أن كادت تدهسه إحداها، يتكئ على عمود الجسر، ثم يلتفت من حلاوة الروح صوب السيارة التي مرت كالصاروخ وكادت تدهسه، يبصق بقوة:

- تفوه خرا عليك شو راكب صاروخ؟!

هه! غريب! لأول مرة يتصرف بغير تهذيب.

يتابع إلى شنتته، يتجمد.

ليست في مكانها!

يصعق! أين هي؟ من سبقه إليها؟ كل شيء في مكانه تمامًا إلا الشنتة! ما هذه الخربطة! أين هي! يرى رجلا يحمل شنتة يحسبها شنتته، يغضب، يقرر أن يهاجمه غير أنه ينتبه إلى أن شنتة الرجل بنية وليست سوداء، يتراجع بعدما تحفز وخطا الخطوة الأولى، يقف حائرًا، ينظر بحقد إلى مكان وجود شنتة المنام، لن يعود بغير نقوده، يبحث بين السيارات المارة والذاهبة إلى المطار عن سيارة بيجو شتيشن، ربما تمر وترمي الشنتة، غير أنها لا تأتي، لن يعود بغير نقوده مهما كلفه الأمر، سينتظر، لقد صدَّق منامه ولا يمتلك أن يكذبه بأي حال، لأول مرة يكون

قويا ويمتلك قراره كاملا، لن يعود! لن يعود إلى البيت بغير نقوده! يجب أن ينتظر مجيء سيارة بيجو ستيشن تحمل نقوده.

يتقدَّم بخطوات واثقة ويقف كمسمار في وجه سيل السيارات، هناك، في مكان شنتته في المنام، قرب الجسر، وسط الشارع.

حبيبي! حبيبتي!

حبيبي! حبيبتي!

أحسست بألم شديد في ذراعيَّ. كيف لا! وأنا أحمل كيسين كبيرين، في كل يد واحد يزن ٣٥ كغ، لقد وازنتهما بكثير من الدقة، ويديَّ قويتان يمكن أن أحمل مثل هذا الوزن بسهولة كبيرة، عاودت تقديرها، حتما الوزن أكثر من ذلك، لا فرق، قررت المتابعة وعدم التوقف إلا عند حاوية الزبالة، فقد كنت أريد أن أخلص.

"في كيسين زبالة كبار إدام المجلا، تصبح على خير"

قالت زوجتي ذلك ثم تمددت بجانبي على السرير ونامت، نامت بسرعة كعادتها، وصارت تتنفس بمشقة تنفسا أشبه ما يكون بالشخير. قلقتُ ولم أستطع النوم، رحت أراقب جثتها المتطاولة التي تتنفس، رأس وشعر طويل وصدر كبير وبطن وطيز وأفخاذ، مثل كل النسوان. لم أستطع النوم، صرت أنفخ وأنفخ حتى كاد الهواء أن يخلص، يا إلهي! هل الجحيم أسهل من البقاء في هذا المكان؟! كل ثانية تعادل مائة يوم، أي جحيم هذا! وقفت فوق السرير، نظرت إليها من الأعلى، ركعت، تناولت المخدة الناعمة، جلست على بطنها، كمشت شعرها وفتلته بعنف، صار وجهها مقابلي، أطبقت المخدة على أنفها ووجهها وضغطت، ضغطت بكل قوتي، صارت تخبط بيديها ورجليها محاولة الإفلات، ثم هدأت، هدأت تماما، لم تعد تتنفس، تراجعتُ، رميت المخدة كيفما اتفق، تنهدت، تمددت في مكاني على السرير، أشعلت سيكارة، ودخنتها بكل متعة، لأول مرة في حياتي، أستمتع بالسيكارة وأنا أرى زوجتي ميتة لا تتنفس. قفزت من السرير بنشاط، أنرت الضوء، تقدمت منها، كانت مشعثة تنظر بعينين جاحظتين،كمشتها من شعرها وجررتها إلى المطبخ، رميتها أمام المجلا، التفت إلى البراد، باحثا عن الكيس الذي يحوي

السكينة الحادة والساطور فلم أجده في مكانه، ارتفع الدم إلى رأسي، اندفعت إلى أوضة النوم غاضبا لأصرخ بامرأتي، كيف لها أن تعبث بأشيائي؟ تعثرت بصدرها ووقعت، انتابتني ضحكة هازئة من نفسي وتذكرت ما فعلته بها منذ قليل... ولكن هناك مشكلة؛ أين الساطور والسكينة الحادة؟ فعلا هنالك أمام البراد كيسا زبالة كبيران ملونان، يوحيان أن فيهما حلويات وفاكهة، أخيرا وجدتهما على المجلا ولكن الغريب إنهما مليئين بالدماء ورائحة البسطرما تعبق من هذا الدم المسود، لم يأكل البسطرما أحد غيري! زوجتي تكره البسطرما ورائحة البسطرما وصانع البسطرما لا تطيقها، وعندما آكلها تخرج إلى البرندا وتظل حتى انتهي، كذلك فعلت هذا المساء فدعوتها للدخول حتى أصالحها، فهجمت كالمجنونة على الرف حيث تناولت كمامة حتى لا تشم شيئا ووضعتها على أنفها، ثم أمرتني أن أدخل إلى الحمام لأتحمم بأقصى سرعة، وقد استجبت لإرادتها لأنها تثير فيَّ الرعب عندما تكون غاضبة، لحقت بي وصارت تزيل عني ملابسي بعنف وأعطتني صابونة، ثم أتت بنبريش تتدفق منه المياه بقوة وصوبته على رأسي وجسمي وهي تقول "فروك.. فروك حالك يؤصف عمرك شو بتقرف!".

ثم خرجت وراحت تنظف البيت وهي تبرق وترعد وتشتمني. فجأة، ساد صمت ما! ناديتها، فلم تجب! تابعت حمامي مستغربا، لربما خرجت مجددا إلى البرندا، لكن ارتعش كل بدني بلحظة وشعرت برعب شديد، انتبهت لصوت خفيف صدر عن باب المطبخ، ثم ساد الصمت من جديد ناديت زوجتي بصوت كله رعب فلم تجب، اجتاحني برد شديد، التفتُّ صوب الباب بسرعة فوجدت زوجتي قد تسللت وبيدها الساطور مرفوعا إلى الأعلى ثم هوت به على رأسي! انشق رأسي وعلق الساطور بجمجمتي، صارت تشده فلم يكد يخرج! هه! رأسي يابس بما فيه الكفاية! حاولتْ إزالته من جديد ففشلت، ثم سحبتني أنا والساطور إلى المطبخ، تنهدت بعمق وصنعت لنفسها قهوة وجلست إلى الطاولة تدخن سيجارة مع قهوة، تتأملني وتتلذذ بالقهوة وهي في سعادة غامرة.

بعدما انتهت، تناولت السكينة الحادة والمسن وصارت تسنها، ثم اقتربت مني وصارت تعالج الساطور العالق في جمجمتي حتى خرج، رفعت السكينة وهوت به على بطني، السكينة حادة فعلا، صارت تقطعني إلى نصفين ولما اصطدمت العامود الفقري استعانت بالساطور وبضربة واحدة منه صرت نصفين، ثم قطعت رأسي، ويديّ ورجليّ، وجزأتني إلى قطع صغيرة، وعبأتني في كيسي زبالة ووضعتهما أمام البراد، ثم نظفت كل المطبخ وأزالت كل آثار الدماء، في النهاية شعرت بإنهاك شديد فتركت السكينة والساطور من غير أن تنظفهما على المجلا في المكان الذي وجدتهما فيه، عندها عرفت سبب الدماء العالقة عليهما ورائحة البسطرما العابقة منها، ارتفع الدم إلى رأسي وصرخت وقررت أن أنتقم، أتيت بحبل، ربطت رجلي زوجتي بقبضتي البابين، شددتها بأقصى ما أستطيع حتى كادت تشرخ، عندما شققت بطنها انسكبت الأمعاء دفعة واحدة ففاحت رائحة ما، اضطررت لفتح الشباك ثم عبأت أمعاءها، وشققت الصدر وتناولت الرئتين والقلب والطحال، وضعت الأخير جانبا، قررت أن آكله بعد أن أنتهي، الطحال عندي أطيب ما في الذبيحة، ثم فصلت الرأس وأخذت بفصلها نصفين كما يفعل أبو جابر بالخراف، لم أنجح في فصلها إلى قسمين متساويين كما يفعل، إنه حقا لَحَّام ماهر، على الرغم من أني سددت ضربات الساطور بقوة وإحكام على منتصف العامود الفقري بالضبط. لم يكن تقطيع زوجتي وتعبئتها في أكياس الزبالة الملونة بأسهل من تنظيف المطبخ من الدماء وما شابه، فقد وضعت كما أفعل عندما أساعدها في أعمال التنظيف، شريطا راقصا وصرت أعمل بجد.

غريب! لم أكن أتوقع أن تكون الدكاكين مفتوحة في الساعة الرابعة آخر الليل، كل الدكاكين! كل الدكنجية بما فيهم أبو فايز ونزهات، كذلك حسن الفوال وأبو جابر اللحام، وأبو رؤوف الكندرجي، صار الجميع يتسابق على مساعدتي، حقا كم هم لطفاء! حتى أن أبو جابر استوقفني، وقال لي بعد أن عرض المساعدة:

"إستاز، إجت المدام، أخدت الساطور والسكينة الحدة اللي وصيتني عليهن، الله يخليك لا تطولوا لنا فيهن، بتعرف أنا بحتاجتن"

"المدام؟ أنو مدام؟!"
"مدامتك إستاز مدامتك"

لم أصل إلى حاوية الزبالة الكبيرة إلا بعد أن أحسست بيدي قد تمزعتا تماما، وضعتهما على الأرض وصرت ألهث، رفعت كيس الزبالة الذي اعتقدته أخف ودفعت به إلى الحاوية فأصدر صوتا قويا: دجج! ثم رفعت الثاني وكان أثقل ودفعت به إلى قعر الحاوية فصاح صوتا أعلى من الأول: دجججج!!

أحسست بشيء ثقيل وقع على ظهري شيء بحجم حاوية زبالة، أفقت فزعا، الصباح عبّأ أوضة النوم، رائحة البسطرما ما زالت في مخي، بالإضافة إلى رائحة حبق خفيفة، فيروز تغني: "إنت وأنا عم يسألونا كيف... منضل شو بيحلا لنا نغني..."، ألله! ألله يا فيروز! ركضت إلى المغسلة، وضعت رأسي تحت حنفية الماء البارد، جاء صوت زوجتي رقيقا ناعما:

"حبيبي!"

دخلت إلى المطبخ، باستني على فمي، وقالت:

"صباح الخير حبيبي"

فقلت وأنا لا أزال مدهوشا أبحث بعيوني عن الساطور والسكينة الحادة:

"صباح الخير حبيبتي"

جلست إلى الطاولة منهكا من التعب، بدأت بتناول القهوة، مرَّرت زوجتي يدها على زريعة الحبق، فثارت رائحة عبقة طيرت شيئا من رائحة البسطرما العالقة في مخي، وظلت عيوني تجوب المطبخ بحثا عن الساطور والسكينة الحادة حتى وجدتهما يلمعان على مشكة الصحون نظيفين وكأنْ لم يمسسهما أحد حتى الآن.

لم تتأخر سيارة الزبالة كثيرا، ابتلعت كل ما في الحاوية بلقمة واحدة، وراحت أسنانها الضخمة تلوك كل النفايات، بما في ذلك كيسان ملونان يوحيان أن فيهما حلويات وفاكهة.

مشهد ناقص

مشهد ناقص

رامي جالس متجمدا على الكنباية يسند ذقنه بيده وينظر إلى التلفزيون، يلبس قميصا وبنطلونا مكويين على طريقة الكبار، إنه بوضعية المستعد للخروج في أية لحظة. وسيم يلبس بيجامة رياضية جالس على السجادة يلاعب عبير التي لا تكف عن طلب اللعب واللهو، ولكنه ينظر بين الحين والحين بقلق إلى رامي. فوزي جالس على الكنباية البعيدة، يلبس بيجامة منزلية، على وجهه شاربان مرتخيان، أمامه على الطربيزة فنجان كبير من القهوة، وصحن بيتي فور، ينظر بحدقات متوترة إلى الأولاد. ناديا تتحمَّم منذ أكثر من ساعة، الجميع يسمعون التدفق الكبير للمياه على أرض الحمام. يظن المرء أنها أفرغت خلال هذه الساعة ما يعادل صهريجا مليئا بالماء.

يتوقف تدفق الماء، يرمق رامي فوزي بسرعة، يقلب وسيم نظراته بين فوزي ورامي، وعبير لا تتوقف عن طلب اللعب واللهو. تخرج ناديا من الحمام مرتدية البرنس، تتكلم مع فوزي:

- جيب لي الكيلوت عن الحبل.

يقف فوزي قبل أن ينهي رشفة القهوة، يضعه على الطربيزة فتنسكب عدة نقاط، يهرول إلى الشرفة ثم يعود حاملا الكيلوت، يتفاجأ بنظرات ولديه، فيخفي الكيلوت مباشرة، ويهرب من نظراتهما إلى أوضة النوم، يفتح الباب يجد ناديا جالسة عارية أمام المرآة، يمد لها الكيلوت فتأخذه:

- بتريدي شي غيرو؟

تنظر إلى الكيلوت:

- يا حمار! جايبو بلا كوي؟!

ترمي الكيلوت فيغطي وجهه ورأسه، يتناول الكيلوت يخبئه في كفه:

- حاضر! متل ما بتؤمري!

يخرج من أوضة النوم يغلق الباب، يمشي بخفة إلى المطبخ. ينفخ رامي ويتقدم بوركه إلى مقدمة الكنباية ويضع يديه فوق ركبتيه، يصير وجهه في غاية الجدية، إنه مستعد الآن للخروج أكثر من الأول، يحاول وسيم أن يقف فتشده عبير، تعيده إلى الجلوس وهو ينظر إلى رامي بقلق. يخرج فوزي من المطبخ ويمر بسرعة إلى أوضة النوم، يناول ناديا الكيلوت ثم يعود إلى مكانه يرى نقاط القهوة على الطربيزة فيروح إلى المطبخ ويعود بخرقة يجلس في مكانه وهو يمسح نقاط القهوة، ثم يشرب القهوة ويأكل حبة بيتي فور فلا يقدر أن يبلعها وهو ينظر خلسة إلى الأولاد بين الحين والحين.

يرن جرس الباب، يقف فوزي قبل أن يقرر الوقوف، يتردد ويحتار بين التقدم صوب الباب والجلوس، عبير تشد وسيم من قبة قميصه ولا تتوقف عن طلب اللعب منه وهو ينظر إلى رامي الذي ينظر نظرة جامدة إلى فوزي، جعلته يرتبك وجعلت ركبتاه ترتجفان.

يرن جرس الباب عدة مرات، أخيرا يروح فوزي إلى الباب وقدماه ترتجفان، تتجمد يده فوق مقبض الباب فتتجمد فوقه ، يعيدها وكأنه يخبئها أمام صدره ثم تنزل يده إلى ما فوق المقبض لتتجمد من جديد. يرن جرس الباب من دون توقف، تنزل يده على المقبض من دون تفكير ويفتح الباب.

يدخل أبو رياض مباشرة، على وجهه غضب، يقول بقسوة وكأنه يخاطب طفلا أخطأ:

- شو باك ما عم تفتح؟
- أهلين! أهلين!... أهلين أبو رياض
- وين ناديا؟!
- جوا، جوا عم بتلبس أواعيها
- وين؟
- جوا بأوضة النوم
يبعده أبو رياض بساعده جانبا
- بعد هيك!
- تفضل تفضل أبو رياض إنت أخ... إنت أخ

يدخل أبو رياض مباشرة إلى أوضة النوم، من دون أن يسمعه، يلحق به مثل الأبله، يفتح أبو رياض باب أوضة النوم ويدخل، ناديا مرتدية الشلحة السوداء وتتمكيج أمام المرآة وعندما ترى أبو رياض تضحك له وتقول:

- أهلين أبو رياض
- ولك وينك! تأخرتي

يقترب منها ويبعصها في طيزها فتتأوه وتضحك بغنج، بينما فوزي ينظر إليهما مثل الأبله، يبوسها من رقبتها فتضحك ضحكة ممطوطة وتبتعد عنه صوب التخت، يكمشها من خصرها ويشدها إلى وسطه فتتأوه

- أوه! تركني!

ثم يرتميان على التخت وتحاول أن تفلت منه فلا تستطيع، ترى فوزي واقفا عند الباب ينظر إليهما، فتغضب وتصرخ به:

- شو عم بتساوي هون يا حمار طلاع لبرة وسكر الباب، يئطع عمرك

يتلفت فوزي ثم يكمش قبضة الباب:

- حاضر حاضر

يغلق الباب ويروح إلى مكانه ويجلس وكأنه يختبئ من نظرات رامي ووسيم وعبير التي كفت عن طلب اللعب؛ ينظرون نظرات جامدة وملحة.

تتعالى أصوات ضحكات ناديا وأبو رياض، تصير ضحكاتها أكثر حدة، ثم تتأوه وتصرخ، يلهث ويخرج أصوات كالثور.

يهرب فوزي بنظراته من الأولاد يتلفت حائرا وتضيع حدقتاه في بياض عينيه في حركة عشوائية متواصلة.

تتعالى الأصوات القادمة من أوضة النوم، تتأوه ناديا وتصرخ، يلهث أبو رياض ويجعر، تصرخ، تتأوه، يجعر، يصرخان صرخة عالية، ثم يسكنان.

يسود صمت ثقيل، تستقر حدقتا فوزي على حذائه، عبير ووسيم ينظران بجمود إلى رامي الذي أصبح مستعدا للخروج أكثر من أي وقت مضى.

زقزقة العصافير

زقزقة العصافير

العتمة تريح أعصابي، ولكن تؤلمني إذا ما رافقتها زقزقة العصافير.

أشعل آخر سيكارة وأنا أراقب تنفس وشخير أولادي، وصوت الريح، وهذا التنقيط المستمر على طشوت وطناجر منشورة في أرض الأوضة، نتيجة هطول الأمطار المستمر على الدنيا منذ المساء، يثير بارتطامه على ألواح الصفيح إيقاعات مرعبة، لم أكن أسمعها قبل انقطاع التيار الكهربائي، إيقاعات تذكرني بأيام اعتقالي، وكأننا جالسون في بئر ماء ينقط في كل مكان، تذكرني كيف كنا ندخن هذا النوع الرديء من الدخان، وكيف كنا نسوي أمورنا لكي يظل متوفرًا باستمرار، فما علينا والظرف هذا إلا أن نتضامن ونتساعد لنوفر شفطة شفطة لكل منا عند الصباح، ورغم أنه أردأ الأنواع وأرخصها، فقد كان نادرًا في كثير من الأوقات.

أستغرب أصوات زقزقة العصافير وأنا أتأمل طول آخر سيجارة أملكها، إنها أغلى ما أملك، أعب نفسًا قويا، أحاول أن أرسله إلى آخر الرئتين، يجب أن يظل نصف السيجارة على الأقل إلى الصباح. أطفئها، أرممها جيدًا، وأخبئها تحت المخدة. أتنهد، أستلقي، أحاول أن أغمض عيني.

ما صوت زقزقة العصافير الحلو الناعم هذا! إلا أنه قاس ويأتي شاذا وغريبًا، باقي الأصوات عادية جدا، حيث لا يهدؤون طيلة الليل، تظهر أصواتهم، مسبات وشتائم، وأصوات بنادقهم وارتطام الأحذية العسكرية الضخمة على بلاط الممر وأصوات السلاسل والمصاريع ومطارق وألواح خشبية تصطفق، وصراخ المعتقلين الذين يأكلون نصيبهم من التعذيب، وغيرها من الأمور التي أصبحت مألوفة جدا منذ

أن دخلت، ولم أعد أستطيع أن أعيش من دونها. فمن يتعرض لتجربتي في زنزانة معتمة للغاية، تصبح حاستا السمع والشم قويتان جدا، فهما تفسران الأشياء واضحة في مخيلتي وكأني أراها، حتى أنني نسيت فائدة النظر والألوان والأشكال، لطول الوقت الذي قضيته، دائمًا أمضي وقتي في هذه العتمة وألهو بترتيب الأشياء على هواي. ولا أسمع من أصوات الحيوانات إلا صوت الجرذ الذي يقاسمني بحقارة المتر المربع الذي لا يكفيني لأتنفس، أما أن يأتي صوت زقزقة عصافير فأمر غريب فعلاً وفي غير محله، وربما كان مستنكرًا، وإني لأعجب كيف سمحوا له بالدخول.

يتناهى لي صوت أحذية قادمة، أشق باب إدخال الطعام السفلي قليلاً وأرهف أُذُنَيَّ؛ رجلان، أتجرأ وأفتحه أكثر لأدقق في الصوت... لا بل هم ثلاثة، وثالثهم لا يلبس بوطًا عسكريا. يتصاعد صوت قدومهم، فأنكمش وأدعو إلى الله ألا يكون قدومهم إلى زنزانتي، أدرك لحظة تصاعد صوت اقترابهم أنهم آتون إلي، فأسلم أمري إلى الله، ولا يلبثون أن يقفوا بباب زنزانتي، يفتح الباب، فأعتدل خائفًا، تمتد يد ضخمة إلى ياقة سترتي وترفعني فأرتفع حتى أقف في مواجهة سجان بحجم بغل ثم يتركني فأقع على الأرض، ويوجعني خصري، أجد نفسي محاطا بأقدام السجانَيْن، يرفعاني كمن يرفعان دجاجة ويمشيان بي، يدفعاني، وأمشي مرغمًا بين البغلين خلف شيخ يحمل مصحفًا عبر الممر الطويل المعتم، ننعطف يمينًا، -ترى أين رأيت شيئا كهذا؟ أين؟- يفتح حارس الباب تلقائيا، فأنبهر من الشعاع المنبعث من الخارج، الوقت ليس ليلاً كما حسبت بل صبحا، ألمح الجنود المسلحين المصطفين حول الساحة مثل التماثيل، فيما يقودني الرجلان البغلان صوب المنصة المنصوبة في وسط الساحة وكأنها مسرح صغير صنع على عجل.

هه! كل هذا المسرح من أجلي أنا؟!

وقد وضع فوق المسرح كرسي، وثبتت فوقه عارضة خشبية تدلى منها حبل سميك معقود في نهايته على شكل دائرة يمكن لرأس إنسان أن يدخل بها بسهولة.

يا إلهي! ما هذا؟! لاه! مشنقة؟! إنها مشنقة! ....

كل ذلك وأنا لا زلت مستغربًا أصوات زقزقة العصافير.

يقترب مني الشيخ، يفتح المصحف، ثم يأخذ بتلاوة آية قرآنية، ويطلب من الله أن يسامحني على ذنبي، كما يبدأ بتلقيني نص التوبة على ما اقترفته من ذنب عظيم لا أكاد أعرفه حتى

كل هذا المسرح من أجلي أنا؟!

وما أن أبدأ بالاحتجاج حتى تهاجمني قبضات الماردين، وترفعني مثل صوص وتثبتني فوق الكرسي بعد ربط يديَّ بحبلة متينة، يدخلون في رأسي كيس طحين يجعلني أسعل بشدة، ثم يضيق الكيس على وجهي ويضيق أكثر وأكثر من عند الحنجرة حتى أشعر بالاختناق، ولا يسعني الوقت لأن أصرخ، فأشهق لأن الكرسي هرب من تحت قدمي، تر تر تر ر ر ر ر، يرسخ في أذني صوت تكسر حنجرتي وعظام رقبتي.

شنقوني!

أصرخ، أرفع رأسي عن المخدة، ألوحه هنا وهناك، أتفحص رقبتي المكسورة، أتحسس حنجرتي، أدرك أني كنت في منام، أنهار على الفراش من جديد أنفاسي تكاد تنقطع، فأتنهد مليا، أتناول نصف السيكارة المتبقي من تحت المخدة، أشعلها لتهدأ نفسي قليلا، وأدخن بمتعة.

غير أن زقزقة العصافير هي المستمرة، ولم تنقطع حتى الآن!

أقف، أتجاوز أجساد أولادي وأذهب إلى الحمام، وبمجرد أن أفتح الباب تهاجمني رائحة بول واخزة، أدخل بسرعة، أتبول، يقطع تبولي صوت رجل يأتي من الأعلى، أربط زر بنطلوني بسرعة، يعلن الرجل أنه ألقى القبض علي أخيرًا، أدرك أنه رجل مخابرات وأني وقعت فعلاً. ما هذا التغيير؟ لأول مرة أعرف أن حمام بيتي بلا سقف! يدخل الحمام رجلا مخابرات بحجم بغلين، يضعان القيد في معصمي ويأمرانني بالمسير أمامهما إلى بيت خالتي، مجرد فنجان قهوة وأعود، أتوسل إليهما حتى أخبر زوجتي، يرفضان، أطلب متوسلاً أن أكمل تبولي على الأقل، فيضربانني ويرفسانني ويدفعانني أمامهما، لا شيء يزعجني أكثر من زقزقة العصافير، يا لها من مزعجة! توجع أذني، إنها مؤلمة أكثر من أي شيء آخر، يدفعني الرجلان بعنف، وقبل أن نخرج ومن البيت يضعان بطانية صوفية وسخة فوقي، ثم يقودانني، أمشي أمام لكماتهما ورفساتهما في الحارة، فتأتي أصوات النساء والرجال العجائز، يشمتونني على هذه الآخرة التي صرت إليها، "هذه عاقبة من يحشر أنفه في عش النمل! هذا مصير من يتجرأ وينكش فطيرة الدبابير! ولا نكاد نصل إلى السيارة حتى أبادر بالسؤال عن سبب اعتقالي والتهمة الموجهة إلي، فيجيبني الرجل بلكمة تجعل الدم يسيل من أنفي والآخر بلكمتين بسرعة البرق تكسران ضلعين.

تمشي بنا السيارة أكثر من نصف ساعة في الشوارع ولأني أعرف شوارع الشام جيدًا، ومتمرس على تدريب حواسي الأخرى، فقد استطعت في ربع الساعة الأولى أن أعرف إلى أين نحن ذاهبون، وفي أي طريق نمشي، أما بعدها لم أعد أعرف شيئًا، خاصة وأن الرجلين أخذا يلهوان بلكمي وضربي.

يسحبونني من السيارة حيث أصعد أمامهما على درج من خمس درجات، ننعطف بعد تسع خطوات إلى ممر طويل يرمونني في آخره بين عدد من المعتقلين مثلي بركلة عنيفة؛ عرفت أنهم معتقلون دون أن

يزيلوا البطانية عن رأسي، عرفتهم من تنفسهم المتقطع والمخلوط بالسعال المتواتر، نتيجة البطانيات المغبرة الوسخة التي يخنقونهم بها مثلي تمامًا.

أول نور رأيته، بعد نور سيجارتي التي أتيت عليها كلها، نور أتى من عمق الغرفة، حيث رماني رجل مثل البغل وأزال البطانية بحركة واحدة، لم أستطع أن أميز المحقق أبو النظارات السوداء، فقد ظل النور مرسوما على شبكية عينيَّ فترة طويلة مما دعاني إلى إغلاقهما، يأتي رد المحقق برفسة على وجهي، إنها الدرس الأول، أما التهمة فتهريب الآثار! تهريب الآثار؟! تلقيت على سؤالي درسًا ارتداديا سريعًا، أو رفسةً سريعة.

-اعترف أين تخبئ الآثار!

-يا سيدي عن أي آثار تتكلم؟! لا أكاد أستطيع أن أخفي آثاركم عن جسمي!

لم أستطع إلا الصراخ، عندما لُقِّنْتُ دولابًا لن أنساه، ولقد كان الجلاد الذي يلقنني الدولاب غِرًّا، لم يتمرس بعد على تلقين الدواليب، فلكي يرضي سيده الذي يتلذذ بصراخ المعتقلين، يستخدم جهدًا مضاعفًا قد يؤذي، غير أني أنا المتمرس على أكل الدواليب بكل أشكالها، لن أسمح له ولغيره بإيذائي، فكان ذلك يضطرني إلى بذل مزيد من التركيز والجهد حتى أخرج من الدولاب بأقل الخسائر الممكنة، وكلما كان صراخي واستنجادي عاليًا، كانت همته تخف، وأنا أراقبه وأراقب حركة جسمه والكابل فأميل بقدمي حسب المطلوب، وغالبًا ما كانت تنجح حساباتي. أيه! بحق إن الجلاد المختص بتلقين الدواليب والذي يتقن عمله جيدًا رحمة! رحمة ما بعدها رحمة.

غير أن ما يثير قلقي واستغرابي حتى الآن، زقزقة العصافير التي لا تكاد ينتهي، ولا تكاد حدتها تخف وتريحني أخيرًا، حتى أثناء الدولاب وما بعد الدولاب عندما كنت مرهقًا للغاية، ظل بحدته نفسها.

عاد الضابط إلى استدعائي، وأول ما وجهه من أسئلة عن المصاري أين أخبئ المصاري. آخر تهمة كنت أتوقعها أن أكون مخربا للأمن الوطني، سارقًا لاقتصاد البلاد! فلا يكاد أولادي الذين لا يتجاوز أكبرهم الرابعة يأكلون، اسأل عني يا سيدي أرجوك، ما لي وما للاقتصاد والأمن؟ أخشى أن أموت ليس لأني أحب الحياة، لا، بل لأمراض فيَّ مزمنة، تصور يا سيدي أني أحوي أمراض الناس كلهم، تصور أن أموت وأنا أملك كل هذه الأمراض؟ ستصل رائحة جثتي النتنة إلى مالطة على أقل تقدير. أرجوك يا سيدي، فما لقيته في حياتي يكفي لمحو ذنوب الناس، كل الناس على هذه الأرض، فانظر في أمري أرجوك.

استمع إلي الضابط حتى الأخير هذه المرة، وهو جالس على جانب الطاولة ثم وقف وذهب إلى الكرسي جلس وهو يأمر العسكري أن يأخذني إلى كرسي الكهرباء، حتى يعيدني عندما أعترف، فانبطحت عند قدميه أتوسل إليه ألا يفعل لأني سأعترف، سأعترف بكل شيء. جلست على كرسي الاعتراف. سألني هل هربت الآثار؟ نعم! هربت الآثار! جاوبت. سألني كيف؟ ومن هم المتآمرون معك؟ فكرت للحظة ثم بدأت أقص عليه حكاية ألفتها مباشرة شبيهة بقصة فيلم رأيته من زمان. غضب الضابط، ورفسني على وجهي، وقال متوعدا: عدت إلى المراوغة، ها؟ ثم أشار لعسكري أن يأخذني، فرحت أتوسل من جديد، غير أن التوسلات لم تعد تجدي نفعًا لأني حُمِلْتُ كذبابة، ورُبطت إلى الكرسي الكهربائي وما زالت أصوات العصافير تزداد في أذني وفي وعيي، ربطوني إلى الكرسي بشكل جيد، فسمعت صوت زوجتي هذه المرة يناديني: "يا رجال ولك شو صار لك؟! خود، خود اشراب مي"

ووضع الرجل المجس على صدري فسرى في جسمي تيار كهربائي قوي، في اللحظة التي أحسست بها بيد زوجتي تمتد إلى صدري.

أصرخ، في حين تنتفض زوجتي وتقع على الأرض على بعد مترين مني، من شدة التيار الذي سرى في جسمي، أستيقظ، ولا يزال التيار الكهربائي يرقص على أعصابي أنظر إليها مستغربا، بيد أنها تبتعد عني خائفة، وتستغرب كيف أن التيار الكهربائي مقطوع، وأخزن بجسدي طاقة كهربائية تكفي الحي كله.

أفكر في كلامها وأقارنه بتهمة الضابط... لربما! لربما لم يكن مخطئا في اتهامه لي عن سرقة اقتصاد البلاد.

أسقط على فراشي منهكا من الدولاب وكرسي الكهرباء، أرفع المخدة أجد نصف السيكارة، وأفرح، أفرح لأني استطعت أن أدخنه مرتين، أشعلها وأشفط بقوة أوال أن أتلذذ بطعمتها برفقة أوجاع جديدة متنوعة وموزعة على كل أنحاء جسمي؛ في حنجرتي ورقبتي وأنفي المهشم وفي صدري وأضلاعي المكسرة، بينما زقزقة العصافير تصدر ضجيجًا مضاعفًا في بطون أولادي.

وقفة عز

وقفة عز

كما كنتُ أخشى، وقع الاختيار عليَّ لمهمة المراسم. فإثر اجتماع أجراه الضابط المسؤول، تم اختياري مع خمسة من زملائي وصُرِف الباقون وظل الضابط يُلقي علينا تعليماته الصارمة في كي الملابس وتنظيف الأحذية حتى تكون كالمرآة لنكون فخرًا للشرطة كلها.

دائمًا يتم اختياري لِمهمة المراسم، وذلك لأني طويل معتدل القامة. أكره هذه المهمة كثيرًا لأن ألمًا شديدًا يُصيبُني في رقبتي إذا ما وقفت جامدًا ثابتًا لفترة طويلة، فكيف إذا كنت حاملا بارودة؟ وأكثر من مرة، قررت أن أذهب إلى الضابط، لربما يعذرني بسبب ألم رقبتي، فكرت في الأمر كثيرا، وحاولت أن أجد عذرا قويًّا، كما وجدت حلولا ظلت تلح عليَّ، مثل أن يجعلني أحمل بارودة من خشب من التي تستخدم للتدريب، طالما أن البارودة التي أحملها فارغة من الرصاص ولا تستخدم إلا ديكورا مكملا، وزن البارودة الحقيقية ثقيل جدًّا، وهذا الثقل يسبب لي ألما لا يحتمل.

غير أني لم أنفذ أي شيء من كل تفكيري شيئا ولم أذهب ولا مرة خشية أن يتهمني بالخيانة العظمى، فأنا عسكريٌّ، والعسكريُّ عليه أن ينفذ المهمة الموكلة إليه، ثم يعترض! لكن، بعد أي شيء؟ خاصة وأني أخدم إجباريًا، فلا اعتراض ولا أهمية لي على الإطلاق.

- انتو أبطال

صرخ الضابط في وجوهنا مكشرا أثناء إلقائه الخطبة العصماء، راح يحمسنا ويصرخ في وجوهنا ويؤشر بيديه ويخبط برجليه، وكأن العدو على حدود الكتيبة، وقد أثار فينا من العزيمة والقوة ما يجعلنا نسحق ذلك

العدو الوهمي مهما كان كبيرا وأن نبيده عن بكرة أبيه، بدأ خيط الألم يخط في رقبتي وتمنيت أن ينتهي حتى أرتاح قليلا، ولكنه أكمل خطبته:

- نفوش ريشك، وارفاع مناخيرك لفوق لفوق لعند السما... قلنا ارفاع مناخيرك يا خرا... والله والله لنسيكن حليب إمكن إن خجلتوني وطلعتوا خروات ومناويك... ولك عم بقل لك ارفاع مناخيرك يا خرا

حسبت أن الأمر موجَّهٌ إلي، فاحتلمت الألم الذي راح يتركز ورفعت رأسي وأنفي مباشرة ونفذت الأمر على أكمل وجه.

بعدما وصلنا، جعلنا الضابط حماة للمنصة، فصفَّنا ثلاثة على يمينها يُقابلهم ثلاثة على يسارها.

- بدي ياكن رجال وترفعوا لي راسي... ليكو! أنا رح إقعد هون، بالنص، ورح تضل عيني عليكن، ويا ويلو يا ظلام ليلو اللي بيتحرك حركة وحدة بس.... غير لنيكو بالكتيبة.

أخذ الناس يتدفقون إلى الصالة الضخمة، كانوا جميعًا ذا مظهر واحد تقريبًا حليقي الذقن وشعرهم مُسرحًا تسريْحة واحدة بنظرة جامدة وبشرة شمعية صفراء، وقد وضع على الوجوه شوارب مصبوغة بالأسود اللامع كلها بحجم واحد تقريبا. وما لبثوا أن عبأوا أماكنهم بتهذيب وصمت من دون إثارة أية ضجة، كان سلوكهم أشبه بسلوك مرضى البله المنغولي. دخلوا جماعات جماعات حتى ملأوا الصالة إلا الصف الأول والثاني من الكتلة المتوسطة من المدرج. ونحن واقفون على الوضعية نفسها مُتجمِّدين تحت أنظار الضابط المسؤول وهو يلاحقنا بعيونه المتوعدة حثيثًا أنا وزُملائي.

فجأة، اندلعت ضجة من الهتافات الحارة لوصول المسؤولين الذين دخلوا الصالة من الباب الخلفي ووقف الجمهور وراحوا يصرخون

بهتافات لم أفهم منها كلمة واحدة، غير أنها، والحق يقال، تخرج بسوية معتدلة منظمة وكأنهم تدربوا على أدائها طويلاً، وإن كانت تخرج من حناجر ضجرة، انقسم الجمهور إلى كتل متساوية، كل كتلة يحمل من فيها صورًا وأعلامًا مختلفة عن غيرها من الكتل الأخرى، الترتيب متقن تمامًا، بينما المسؤولون يمرون على الممر الفاصل مُحيين الناس ببدلاتهم السوداء الناصعة ووجوههم البلاستيكية التي رسمت عليها ابتسامة مبتورة.

كنت بمجرد أن يلهو عني الضابط بالنظر إلى الجمهور ومشاركتهم، أميل قليلا وأُغيِّرُ في وضعي بضعة سانتيميترات حتى ترتاح عظام رقبتي قليلاً. ثم لا يلبث هذا الملعون أن يعوي بعيونه وينظر إليَّ شكًّا منه أنني تحركت، غير أني صرت مع الأيام خبيرًا في الهروب من الاتهامات العارضة كهذه، فتجمدت تجمد بطل منتصر ولم آبه له.

عاد الوضع إلى الاستقرار، فتوجه عريف الحفل إلى المنصة، وبُدِئ بالنشيد الوطني حيث أخذ المحتفلون يصفقون تصفيقًا موقعا بإيقاع واحد، ثم انتبه واحد من المسؤولين يجلس على أقصى اليمين إلى المسؤول الذي يجلس في المنتصف تقريبًا ينظر إليه، فزاد من حدة تصفيقه بعدما داهم عيونَه رعبٌ مفاجئ، غير أن الآخر لم يحِدْ عنه بنظرته المتوعدِّة، فأخذ المرعوب يغني النشيد مع الآخرين حيث تميز صوته العالي والشاذُّ، من دون شك، لم يكن ذلك الدور هو الدور المرسوم له، فلم يجد المسؤولون نفسهم إلا في مأزق الإنشاد، ثم تجاوز المرعوب التصفيق والإنشاد إلى رفع قبضة اليد ملوحًا ثم قفز فوق المقعد وأصيب بنوبة انفعال ثوري، فصار باقي المسؤولين يلاحقون سلوكه وانفعاله حتى أن الكاميرا التلفزيونية التي كانت تصور المشهد عن قرب تراجعت لتصور الثورة العارمة التي اجتاحت الصالة كلها.

ثار تصفيق شديد بعد الانتهاء من النشيد الوطني، فأخذ الجميع يجلسون، غير أن مجموعة من الواقفين في الصفوف الخلفية أخذوا يهتفون الهتاف نفسه، كان المسؤوليون في هذه الأثناء قد تنفسوا الصعداء وجلسوا، غير أن الأحمق المرعوب نفسه عاد وورَّطَهم في الوقوف من جديد. وما جلسوا وعاد الصمت إلا بعد شق الأنفس.

أخذ العريف يلقي شعرًا قويًّا أوقع الميكرفونات، فاضطر لتعديلها بعد تصفيق شديد من الجمهور، ثم قدم الخطيب الأول.

كُنتُ مشغولا بالتمثيلية أراقبها بشيء من الفضول من دون أن أنسى الضابط الذي لا أعلم لم سلطه الله علي حتى يراقبني، فمن المؤكد أن الله رحيم ونبيل ولا يراقب الناس بهذه الطريقة، وما أن التفت صوبه للمرة الثانية حتى حمدت الله لأنه كان ينظر ويتوعد زميلي وليس أنا، فاعتدلت وشددت من عزيمتي ونفشت ريشي كديك، غير أن الألم عاد أشد، أحسست أنه أستوطن في لوح الكتف، عدلت قليلا من وضع البارودة الفارغة، وأبعدت قدمي نصف سانتيمتر فقط جَعَلَت الضابط يقف من مكانه، ثم انتبه إلى نفسه، فهو يحرم الذين خلفه من الخطاب الثمين الذي يلقيه الخطيب، فجلس وهو يشير إلي بثلاث أصابع إشارة توعُّد، لزمت مكاني جامدًا ثابتًا بموقف بطولي، أكاد أنفجر من الألم، وأنا أستعيد العقوبات التي تنتظرني في الكتيبة.

الخطيب الثاني سبق أن رأيته في التلفزيون، وجهه منفوخ مثل كرة ويحتفظ بثلاث انتفاخات شحمية؛ اثنين تحت عينيه، وثالث ضخم تحت ذقنه، لا أعرف ما ضرورة أن يأتوا بخطيب بشع للغاية، إلا إذا كان في نيتهم أن يثيروا الرعب في الناس، على كل حال، فذلك موضوع آخر، وفيه وجهة نظر.

أخذتُ أعد الأوراق التي يحملها، وفشلت أخيرًا لأنه كان يقرأها وهو يرتجف، وحمدت الله أنه كان يتخلص من الأوراق بصفها على الطاولة،

بينما كنت أدعو الله أن ينهي هذه الورقة، بدأ التصفيق ثم تلاه الهتاف المدروس بعناية، الذي لم يكد ينتهي هذه المرة. أخيرًا عاد إلى قراءة الخطاب، لم أفهم منه كلمة واحدة لأن الألم أخذ يزداد تركيزا، وصار لا بد من الحركة يمينا أو يسارًا لأتخلَّصَ من الألم الذي خدر يدي وامتد إلى ظهري بشدة التركيز نفسها أو أكثر. ولكن أعين الضابط زجرتني، فعدلت عن مجرد الحركة واحتملت الألم أكثر.

"بدي ياكن متل الصنم، ما تحركوا ولا حركة! واللي بيحرك، يا ويلو يا ظلام ليلو!"

صار تهديده يُحوِّمُ في أذني فصرت محاصرًا بين ألمي وتخوفاتي وذكرياتي المرعبة التي تنتظرني.

أراقب الورقة نفسها التي سينتهي منها أخيرًا، اللعنة! إنه يتناول كوب الماء الموضوع أمامه ويشرب. يُثيْرُ تصفيقًا وهتافًا جديدين! اللعنة على هذه الورقة التي لن تنتهي.

لم ينته الخطيب البشع من خطابه إلا بعدما شلت كل قدرة عندي على مراقبة ما يجري أمامي. راح الألم يسير في جسمي، وصار حيث لا بُدَّ من التحرُّك حتى أخفف شيئا من انتشاره المرعب قليلاً، لكن الحركة أثارت الألم إلى أقصاه فعدت إلى وضعي المتجمد وتركته يمشي كيفما أراد، ومع كل تقدم في أنحاء الجسم كان الألم يتحول إلى ألم جامد وثابت، لا ينتهي.

جاء دور الخطيب الثالث، غريب! كنت أراه على شاشة التلفزيون جميلا طويلا كبير الحجم ليس كما الآن، ولم تكن تظهر بشرته المجدورة، يمر إلى المنصة أثناء الهتاف الذي افتعله الحضور في الصفوف الخلفية. في أثناء هذه الضجة، تقدم اثنان من المرافقين من الكواليس دافعًا درجًا خشبيًّا صغيرًا ذا ثلاث درجات، ثبته خلف طاولة

الخطيب، فتقدم الخطيب ثم صعد فوقه وراح يُحيي الحضور ويردد هتافهم على الميكروفون.

لم تكن معه أوراق سيُلقي خطابه ارتِجالاً إذن، عليَّ أن أستسلم للألَم الذي راح يذوب متعشقًا كل جسمي وعقلي، وصار جزءا من شموخي وعزتي ورجولتي، وبطولاتي وكبريائي وريشي المنفوش ومناخيري المرفوعة إلى السماء. تجمد أنفي إلى الأعلى حيث الشموخ، وربط نظري إلى نقطة واحدة فقط وهي المجد، ولم أعد أقوى على معرفة ما يدور من حولي أو رؤية أعين الضابط أو الخطيب أو حتى الهتافات المرتبة وبدأ الزمن يتسارع، أما الخدر الذي أصابني فقد ساعدني على تحمُّلِ ما يقوله الخطيب وصوته البشع.

لم ينته الخطاب لأنه انتهى فعلا بل لأن صوته قد بح، فراح يقرب الميكرفون أكثر بينما التصفيق والهتافات تشكل فواصل مدروسة بعناية. ثم تلاه غيره من الخطباء حتى انتهى المهرجان أخيرا، لم أصدق أنه انتهى إلا عندما غادر الجميع الصالة بصمت وتهذيب مثلما حضروا، نسيت أني عشت قبل المهرجان، اختفت ذاكرتي وصرت أعتقد أني كائن ولد ليكون في هذا المهرجان وحسب، ويتألم كل الوقت.

كان ألمي قد حولني إلى صنم شمعي لا أقوى على حركة واحدة، ولأول مرة أرى ابتسامة على وجه الضابط الذي اقترب مني وهنَّأني بخطاب مقتضب على بطولتي وشموخي ووقفة العز.

The leader must die!

The leader must die!

أذهلني التشابه الكبير، تشابه حتى التطابق أحيانًا، البناية، المكان، الأشياء، الديكور نفسه، الجنود، الملابس، الرقباء، الملازمون والضابط الكبير نفسه أيضا، نفسه تماما.

فمنذ سنة تقريبا وأنا أنتظر الموافقة الأمنية على افتتاح روضة أطفال، اتفقت مع الشركاء على الخطوات كافة، وتركت عملي وتفرغت لتقديم الأوراق ومتابعة أمور الترخيص وتجهيز مكان ملائم لإقامة روضة نموذجية. لم يكلفني كل ذلك أكثر من شهر من العمل، وقد قرأت كل الكتب المتوفرة في تربية الطفل حتى يكون عندي ما فيه الكفاية من الخبرة العلمية. بعدها وضعت يدي على خدي وجلست أنتظر الموافقة الأمنية. إنها الموافقة الجوهرية التي من دونها لا أستطيع أن أعمل على الإطلاق.

قالوا لي بأنها تحتاج إلى شهرين أو ثلاثة، وربما ستة أو أكثر من ذلك.

طال الانتظار، ماذا أفعل.

جلست في البيت أمام الكومبيوتر ألعب حتى أحرق الوقت. أجمل الألعاب لعبة DOOM، فيها بطل قوي جدا وشجاع جدًّا، أقوده من خلال الكيبورد ليحتل وحده بناية للأعداء مسوَّرة وضخمة جدًّا. على فكرة، هذه اللعبة لعبة خطيرة على الأطفال، وعلى الكبار أيضا.

قدته في مغامرات ممتعة وشيقة، وكلما كان يقتل جنديا يستولي على بارودته وكل ذخائره، وإذا قتل رقيبا حصل على بارودة سريعة، وعلى

غيرها من الأدوات الحربية التي لا أعرف اسمها، المخبأة هنا وهناك. تقدمت في المراحل شيئًا فشيئًا، وكان علي بطبيعة الحال أن أجد المفاتيح الأصفر والأحمر والأصفر فإيجادهم يسهل عليَّ المتابعة ويفتح أمامي الأبواب ومن ثم يجب أن أفك كل الرموز والألغاز المتعددة، بمراحلها الطويلة التي لا تكاد تنتهي، وكلما كنت أحل لغزا معقَّدًا ظهر لغز أعقد.

كل ذلك من دون أن أنسى همي طبعا، صرت أذهب إلى الروضة الجاهزة والمقفلة أمسح الغبار عن المقاعد والألعاب وأتخيل البنات الأولاد يلهون ويمرحون فيها، وأذهب كل أسبوع إلى مديرية التربية لأعرف ماذا حصل بشأن تلك الموافقة الملعونة، حفظ موظفو الديوان وجهي وصاروا يجيبوني حتى قبل أن أسألهم:

- لسة الموافقة ما وصلت، ما وصلنا شي!

ومرة همس لي الموظف حتى أسعى إلى واسطة ما، وأن أدفع رشوة وسأحصل على ما أريد، فسعيت فعلا إلى واسطة وزاد عندي الأمل في الحصول على تلك الموافقة بسرعة، خاصة أنني لم أعمل في السياسة في كل حياتي ولم أخالف القانون يوما. ولم تكن الإجابات أكثر من وعود مؤكَّدة بأنها ستصل قريبا جدًّا.

عدت إلى البيت وإلى البطل الشجاع وأكملت لعبتي، فلم يكن أمامي من خيار آخر.

ذات يوم، وبعدما فقدت الأمل تمامًا بشأن الموافقة، طُرق الباب طرقات قوية وعنيفة، وقفت فزعا، ضحكت من نفسي، لأني بطلي كان في مأزق حرج، ومعرض للموت في كمين نصبه له الأعداء، أطفأت اللعبة بعدما حفظتها وخرجت لأرى من في الباب، لا أعلم لم هذه اللعبة صارت تؤثر على سلوكي، تخيلت أني بمجرد فتح الباب سأضغط على مفتاح إطلاق الرصاص Control، مددت يدي إلى مقبض الباب،

ضغطت بالإبهام Space، هه! ما هذه الحركات المجانية، غير أني صدمت بوجود رجل يضع نظارات شمسية شبيه بالضابط الموجود في معسكر الأعداء، تحركت يدي تلقائيا بحثا عن مفتاح Control، لكنه ألقى علي تحية جافة فخلصني من موقف حرج.

تبين أنه رجل مخابرات جاء حتى يجري معي تحقيقًا أوليًّا، تنهدت وأنا أقول في نفسي أخيرا جاء الفرج بعد سنة كاملة من الانتظار.

كان التحقيق عبارة عن أسئلة غير لطيفة إطلاقًا، وأول سؤال سألني إياه عن اسمي، توقَّعت أنه مخطئ، فلماذا يسألني عن اسمي وقد سأل عن بيتي وجاء إلي وجلس معي؟ نفخ وهو يزيل النظارة ونظر إلى عيوني نظرة تهديد، ثم قال بهدوء، وبشيء من الحنق بأن ألزم الانضباط التام، وبأني غير مخول بطرح الأسئلة أو تحديد نوعيتها، ومن الالتزام أن لا أسأل عنها، فأنا موضع اتهام وعلي أن أجيب وحسب، لا أن أسأل.

- اتهام؟!

قلت وأنا أجحظ عيني، فنفخ وسكت، وقال بأني مثل كل الناس موضع اتهام طالما أني غير متعاون. قلت له اسمي لأنتهي من هذا الخلاف الغبي، ثم سأل عن حياتي في كل مراحلها، في أي مدرسة درست؟ من ترافق؟ من هم أصدقاؤك، وهل عملت في السياسة ومع من؟ ثم سألني عن عائلتي، وأبناء عمومتي وأخوالي وكل أقاربي، وقد أجبت بكل ما أعرف.

بعدما انتهى، تناول ورقة وأعطاني إياها، قال بأنه يتوجب عليَّ أن أصل في الموعد المحدد، ثم أكد في الموعد تمامًا.

على الرغم من أن رؤية هذا الرجل لا تسر أحدا، فقد كنت فرحًا نوعًا ما، وإن بشيء من قلق. مع أني وضعت في حسابي أن أذهب على كل

حال، سوف أذهب مهما تكن النتائج، لأن سنة من الانتظار تجعل العاقل مجنونا، على الرغم من كل ما سمعته عن أساليب التعذيب والقهر التي تمارس هناك.

أمامي خمسة أيام، سأحتاط، سوف أذهب إلى واسطات من ضباط وغيرهم، المشكلة أنني ليس لدي خبرة في مثل هذه الأشياء، وليكن، فيجب أن أسأل أقاربي عن الموضوع، سوف أسعى إليهم وأطلب منهم أن يذهبوا معي. أخاف من الذهاب وحدي إلى فرع مخابرات، لا بد من واسطة ثقيلة.

ارتديت ملابسي وخرجت، ابن عمي تاجر بناء مقطع موصل يعرف الكثير من الضباط، دخلت إلى مكتبه، أجرى عدة اتصالات مع أناس أجهلهم، ولكنهم من ذوي الشأن على ما يبدو، أو كما أوحى إليّ، تكلم كثيرا في أمور عامة وتافهة، وقليلا في موضوعي، أخذ منهم مواعيد، ثم قال إنه سوف ينهي الأمر وحده ويجب أن أضع قدميَّ في ماء بارد، لأن أمري بسيط جدًّا يمكن أن يحله بتلفون.

تساءلت بيني وبين نفسي: لِم لَم أذهب إليه منذ البداية وهو يعرف كل هذه الوسائل الأشياء؟ لربما كنت على رأس عملي منذ فترة طويلة. لم ينل ذلك من تفكيري وقتا طويلا، عدت إلى لعبتي مع بطلي الذي وصلت معه إلى مرحلة متقدمة، دخلت معه إلى مرحلة مجهولة، ضغطت مفتاح Tab، فظهرت خريطة المرحلة الأخيرة، إنها كبيرة جدا، وفيها الكثير من العراقيل والكمائن والمخاطر.

وبعد عدة أيام من الصراع والقتال الضاري خضت فيها مع بطلي معارك ضارية، وصلت إلى النهاية Exit، ضغطت مفتاح Space للخروج إلى مرحلة جديدة ففتح الباب على لافتة كبيرة كتب عليها " The leader must die!"، أين أجد ذلك الزعيم؟ رحت أبحث عن أماكن وجوده، لم أترك مكانًا على الخريطة لم أعد إليه وأبحث فيه، لم أترك

حائطًا إلا وبحثت فيه عن باب سري، فلم أجد شيئا، تفاجأت ببعض الجنود المختبئين، فأنهيت عليهم بعدة رشقات وأخذت ذخائرهم وتابعت، كادوا يقتلونني. لم يبق أمامي إلا الطابق الرابع فهو صغير ومعزول وهامشي، لربما يكون مختبئا هناك، صعدت على الدرج، ↑، ثم انعطفت صوب اليسار ←، بحثت في كل الغرف وتفحَّصت جميع الجدران من دون أي جدوى.

جاء تلفون ابن عمي في لحظة كدت فيها أن أجن وأنا أبحث عن ذلك الزعيم. قال بأنه يتوجب علي أن أذهب وحدي، فهو أوصى عليَّ وسوف أستقبل استقبالا حسنًا ولن يكون هناك أي خطر من ذهابي وحدي، فشكرته لما عرفت بما قام من أجلي، ثم شكرته ست مرات متتالية لأني تضايقت من مكالمته الطويلة، ولكن المشكلة الآن أني سأذهب وحدي، تركني أرتاح في بيتي من دون سعي واضعا قدميَّ في ماء بارد، ورماني في اللحظة الأخيرة أمام المخابرات وحدي لا أعلم أي شيء ينتظرني.

صُدمت عندما وصلت إلى أمام فرع المخابرات، وقفت مذهولا وكأني واقف أمام الكومبيوتر أراقب فضاء لعبتي، كنت مرتاحا من عناء التفكير، بل إن لعبة الـ Doom الشيقة أعطتني شيئًا من الشجاعة، ولقد قضيت البارحة أبحث عن الزعيم المختفي في بناية شبيهة تماما ببناية المخابرات التي أقف أمامها، فمر الوقت هباء من دون تفكير بما سيحصل معي.

عندما اقتربت من العسكري أبو البارودة صدمت لأمرين، الأول أني لم أتهيَّأ لمثل هذا اللقاء مع جهة أمنية بغاية الخطورة، فلم يخطر على بالي، مثلا، أن أبحث عن أجوبة لأسئلة لربما تكون مفاجئة، بماذا أجيب؟ المشكلة أنني بأي زلة لسان، ربما أضيع في أقبية هذا الفرع لعشر سنين أو خمس عشرة سنة، لا يستطيع الدبَّان الأزرق أن يجدني، والأمر الثاني

الذي صدمني هذا التشابه شديد الوضوح بين بناية فرع المخابرات وبناية الأعداء في لعبة الـ Doom.

هنالك ساتر إسمنتي بارتفاع أكثر من متر تقريبًا، ممتد على كامل البناية أمام فرع المخابرات، وفي نهايته هنالك باب حديدي بالارتفاع نفسه ذو سكة حديدية، أما فوق الباب الرئيسي فهنالك لافتة قماشية كبيرة كتب عليها: "الثامن من آذار ذلك اليوم الذي اشرأبَّت فيه الثورة ونال الشعب السوري حريته".

أعطيت الجندي أبو البارودة الواقف عند الباب الحديدي ورقة التبليغ والهوية وأنا مذهول أردد الكلمات بآلية، فغاب داخل الفرع. حاولت التدقيق في البناية، حركت أصابعي، إصبع إلى اليسار على مفتاح ←، والأخر إلى اليمين على مفتاح →، ورحت أدقق في البناية قبل القيام بالهجوم، الكوريدور، المكاتب، الشبابيك، كيفية توزيع الجنود والرقباء والضباط، مرت عيني على اللافتة فعلقت على كلمة "اشرأبت"، فرحت أرددها بيني وبين نفسي "اشرأبت، اشرأبت، اشرأبت"، وكأنني أحاول حل هذا اللغز.

تفاجأت عندما هزني الجندي أبو البارودة من كتفي لأنني لا أسمعه، وأمرني أن أتبعه، سرت خلفه، صعدت الدرج، ↑، عبرت الممر خلفه ونحن ساكتان، كنت طول فترة عبورنا أحرك أصابعي، إصبع إلى اليسار ←، والأخر إلى اليمين →، أرقب المكان وأتهيأ لأي مفاجأة. وصلنا إلى نهاية الممر فأدخلني من خلال باب على اليسار إلى أوضة خالية إلا من كرسي خيزران مخلوع، من الصعوبة استخدامه للجلوس، له أرضية قش مثقوبة ثقبا كبيرا وأعلى المسند مائل. أمرني بالجلوس هادئًا من دون حركة ثم ذهب، فعلت مثلما أمرني. كان على أسفل الحائط أمامي لافتة قماشية كبيرة قديمة ومهترئة، مثل التي في أعلى

مدخل الفرع، مكتوب عليها: "لا حياة في هذا الوطن إلا للـ..."، لكن بقية الجملة غير واضحة.

كان الممر أثناء دخولي مألوفًا للغاية، بل أحسست أني عشت في هذا المكان لفترة طويلة، لقد عرفت كل شيء فيه أبوابه والأصنام المثبتة في الزوايا وأصص المزروعات من ذوات الأوراق الكبيرة والصور الضخمة المعلقة، عرفت كل شيء، مشيت خلف الجندي أبو البارودة وكأني البطل الشجاع الذي يمشي في لعبة DOOM، ولكن بغير أسلحة أو ذخائر، كيف يمكن أن أخلص الجندي من بارودته؟ خطر على بالي شيء من هذا، لا بد من أن صناديق الذخيرة في الأوضة الثانية على اليمين، هذه هي العادة. يجب أن أحمل خمسة مخازن مليئة بالرصاص على الأقل. إذا ما وجدت رشاشًا سريعًا، فسيكون ذلك أفضل بالتأكيد. سأفتك بالجنود العاديين أولا، ثم سأقتل الرقباء والمساعدين وسأجد المفتاح الأصفر للانتقال إلى الطابق الثاني، لا أظن أنني سأرى الكثير من المفاجآت، حتى وإن كان هنالك مفاجآت، فقد صرت خبيرا وأعرف كيف أتصرف، ولربما أجد مدفع RBG، سيسهل ذلك عليَّ الكثير من المشقات لاقتحام البناية من دون شك، ثم سأجد المفتاح الأحمر وأتابع إلى الطابق الذي يليه، لا بد من كل ذلك، لا بد من إيجاد المفاتيح كلها للخروج إلى مرحلة جديدة.

لم أنتبه إلى أن الساعة صارت الثانية بعد الظهر إلا عندما دخل الجندي أبو البارودة، أمرني أن أذهب إلى بيتي وأعود في الساعة الثامنة من صباح الغد.

سبعة أيام بكاملها، بقيت على هذا الحال، كل يوم آتي في الثامنة صباحًا، يدخلني الجندي أبو البارودة إلى تلك الأوضة وأبقى منتظرًا، لا أحد يكلمني أو يسألني أو يتحرش بي، وفي الثانية بعد الظهر أذهب إلى

بيتي. وفي كل الأحوال، كنت أفكر بلعبتي التي لم أستطع أن أجد لها حلا لذلك اللغز المعقد! كيف أستطيع أن أجد ذلك الزعيم وأقتله؟!!

في اليوم الثامن، بعد أن قرفت من حياتي وصرت مهيَّأ للانتحار في تلك الأوضة المنيوكة، جاء الفرج، دخل الجندي أبو البارودة، أمرني بالوقوف واللحاق به، بحثت عن مفتاح ↑، لحقت به في الكوريدور المؤدي إلى الداخل، تلفتُّ يمينًا → ويسارًا ←، راقبت الكوريدور من جانبيه، حسبت عدد الأبواب، كيف يمكن أن أحتمي من الرصاص المنصب من العمق؟ لا بد من إطفاء الأضواء، فذلك يساعد، أيضًا يمكن أن أحتمي بأصص المزروعات والأصنام الموزعة هنا وهناك. مشيت خلفه بحذر شديد، انحرف إلى اليمين فلحقت به →، صعدنا على الدرج العريض تفحصت أجزاء قليلة من الطابق الثاني والثالث، يبدو أن المكان مطابق للمكان في المرحلة التي وصلت فيها مع بطلي في اللعبة، واضح أن احتلالها سهل جدًّا، وصلنا إلى الطابق السادس، فتلني بعنف إلى الحائط وأمرني ألا ألتفت، قيد يدي خلف ظهري وربط خرقة سوداء على عيوني، مسك كتفي وفتلني بعنف، قال: "امشي ولا!" مشيت ↑، فتلني وتابعنا جهة اليسار←، مسكني من كوعي بعنف وقادني، استطعت أن أرى أجزاء من مكونات المكان، عند الأوضة السادسة أمرني أن أتوقف، وألا أقوم بأي حركة.

دخل إلى الأوضة ثم خرج بعد قليل، مسكني من كوعي بعنف وقادني إلى الأوضة ثم أجبرني على الجلوس على كرسي جلوسا خاطئا، ألقى تحية على الزعيم ثم خرج.

ساد صمت لخمس دقائق، شممت رائحة دخان سيكار فخم وخربشة أوراق خفيفة، ثم سمعت حركة تلاها أصوات خطوات على أرض المكتب وصار يتكلم، قال بأنهم يعرفون عني كل شيء ويأملون مني أن

أعاونهم، وقال بأنهم قد يعطونني الموافقة على افتتاح الروضة إن عاونتهم.

أبديت كامل الاستعداد لمعاونتهم، وقلت له بكل تأكيد، بأني أفدي وطني بروحي وحياتي إن اقتضى الأمر.

سألني عن بعض أصدقائي، أجبت بما أعرف عنهم شخصيا بمعلومات ليست كثيرة لأني منزوٍ على نفسي ولا أتدخل كثيرا في أمورهم الشخصية، ثم سألني عن واحد من أخوتي وعن عمله في السياسة وانتمائه إلى أحزاب ممنوعة، فأجبت بما أعرف فعلا ولم أقل شيئا مما يقوله الآخرون لأنني غير متأكد من هذه المعلومات. تعالت حدة صوته عندما قال بأنني أعرف كل تلك المعلومات ويتوجب علي أن أقولها.

سكتُّ، صار يمشي أمامي في أرض المكتب بسرعة وهو ينفخ، صفعني بكف يده ثم لكمني بقوة لكمة أفقدتني صوابي، ثم صرخ في وجهي:

- يا حيوان! عم تتغشمن على ربي؟ ولك ما بدك تاخد موافقة وتشتغل؟ ليش ما عم بتحكي يا منيوك؟! نحنا منعرف كل شي عنك وعن أخوك.. منعرف كل شي

- طيب ما دام بتعرفوا ليش عم بتسألوني إلي؟

- بدنا نعرف منك... بدنا ياك إنت اللي تحكي

سكتُّ، استمر صمت ما، أتتني رفسة على بطني وأخرى على خاصرتي فوقعت أنا والكرسي، صار جانب وجهي لصيقا بالأرض، فاقترب وداس على رقبتي كان حذاؤه كبيرا، ضغط على رقبتي، ضغط

بقوة، انزاحت الخرقة عن عيني قليلا، وأنا أتلقى الرفسات وفي كل جسمي، استطعت أن أرى المكان بجلاء.

لمع في ذهني حل اللعبة.

كانت الرفسات تأتيني من حذاء الزعيم على رأسي وظهري وبطني وكل جسمي، حتى أغمي علي أخيرًا ولم أعد أشعر بشيء.

استيقظت على صدمة كهربائية قوية فلذت بالحائط.

سأنتقم!

نادى بصوت عالٍ، فدخل الجندي أبو البارودة:

-عملوا لو اللازم، وتوصوا لي فيه، بدي إسمع صريخو لهون.

بعد أن عملوا لي اللازم وأكثر، رماني الجندي أبو البارودة في الأوضة المنيوكة خرقة بالية.

سأنتقم!

لا بد لحل اللعبة من أن يفتح باب الزعيم واحد من أتباعه، هذا هو الحل الوحيد، يجب قبل كل شيء أن أبدأ اللعبة من البداية.

عند باب الفرع ذكرني الجندي أبو البارودة بموعد الساعة الثامنة من صباح الغد، مشيت بخطوات جادة إلى زاوية الساحة المقابلة للفرع، وقفت هناك أراقب واجهة المبنى، بابه، طوابقه شبابيكه اللافتة المكتوب عليها شعار اشرأبت، لقد صار عندي معلومات أظن أنها كافية عن كامل البناية وعناصرها وموجوداتها وذخائرها، أعيد قراءة لافتة اشرأبَّت من جديد، أدقق فيها النظر، فألمح:

The leader must die!

سأبدأ اللعبة من هذه اللحظة، سأضغط مفتاحي↑+Shift معًا للتقدم بسرعة، سأقطع الساحة بلمح البصر، وعندما أصبح عند الباب الحديدي ذي السكة سأضغط مفتاح الانحناء Z حتى لا يراني الجندي أبو البارودة ولأكون مفاجئًا أكثر، سأنقض على الجندي أبو البارودة أخلصه إياها، ثم أضغط مفتاح Control وأقتله، ثم أتابع اقتحامي للفرع حتى أصل إلى الزعيم.

هذه أول خطوة حقيقية يجب أن أقوم بها.

– Z -Shift+↑ Control - Z -Shift+↑
Control Shift+↑ Control -Space
.........Control

المحتويات

سرقة الشمس ٣
السبعا وزمنتا ٩
ليلا والديب ١٩
العنقود الأخير ٢٧
منامات رئيفة ٤١
بدي ضلني بنت ٤٩
بروفة للموت ٥٩
سيدة في وجهها حكاية ٦٩
ســـــاميا ٧٥
أبو عادل ٨١
أم الفستان الأحمر ٨٩
دف الشوك ٩٥
على نار هادئة ١٠٥
قرب الجسر، وسط الشارع ١١٣
حبيبي! حبيبتي! ١٢١
مشهد ناقص ١٢٩
زقزقة العصافير ١٣٥
وقفة عز ١٤٥
The leader must die! ١٥٣